كمال البلاغة

وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير

وفيه :
رسائل قابوس الى ابن العميد وغيره
ورسائله الى الصاحب بن عباد
وأجوبة الصاحب بن عباد
ورسائل قابوس الفلسفية

تأليف
عبد الرحمن بن علي اليزدادي

طبع على نفقة
المكتبة العربية - ببغداد
لصاحبها : نعمان الاعظمي

المطبعة السلفية - بمصر
لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان
القاهرة
١٣٤١

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده * وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبعد فانه لما استأنف قطرُنا العراقيُّ نهضتهُ القومية المباركة ، فضمَّ قوَّته إلى قوَّتيْ شقيقتيه - مصر وسورية - فيما أخذتا على عاتقهما من الجهاد لاحياء الادب العربي ؛ أرادت (المكتبة العربية ببغداد) أن يكون لها نصيب من الخدمة في هذا العمل المجيد . وما زالت منذ سنوات تسعى لتعميم ثمرات القرائح ونفثات الاقلام ، بين النشء العربي من أدباء دار السلام . ولم تقتصر على ذلك حين رأت الواجب يقضي عليها بالعمل في منطقة اكثر اتساعا ، فانتدبت لطبع الكتب القيِّمة من مصنفات أفاضل السلف وأماثل الخلف

وهي تتقدم اليوم الى حملة الاقلام ، وعشَّاق التفنُّن البديع في أساليب الانشاء ، بهذا السِّفْر الذي انقضت

العصور والناس يسمعون باسمه ، ولا يظفرون برسمه ؛ وأعني به كتاب (كمال البلاغة) الذي جمع به (عبد الرحمن ابن علي اليزدادي) رسائلَ الامير (قابوس بن وشمكير) الغني بمقامه السامي في التاريخ ، ومكانته العالية في الادب ؛ عن الاطناب في مدحه

وان (المكتبة العربية) لم تدخر وسعاً في تجويد طبع هذه الرسائل ؛ متوخِّيةً أن يكون لمعانيها الدقيقة ، وديباجتها الرقيقة ، مظهر يلائمها في الحسن عند ذوي الاذواق السليمة من قراء العربية

واللهَ نسأل أن يأخذ بيد القائمين بحركة النشر في الاقطار العربية الى التقدم خطوات أخرى فيما هم في سبيله من احياء كنوزنا الادبية ، والارتقاء بنهضتنا القومية ، الى المستوى الرفيع اللائق بها ؛ انه سميع مجيب

بغداد نعمان الاعظمي

قابوس ورسائله

بقلم الواقف على طبع هذا الكتاب

مقتبساً من : (العبر) لابن خلدون ، و (الكامل) لابن الاثير ، و (عيون التواريخ) لابن شاكر ، و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، و (اليتيمة) للثعالبي ، وغير ذلك

حياة قابوس :

الامير (شمس المعالي قابوس بن وشمكير) ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان في القرن الرابع الهجري . تأسس ملكهم بيد عمه (مرداويج بن زيار الجيلي) سنة ٣١٦ ، ثم انتقلت الاريكة الى أبيه (وشمكير) سنة ٣٢٣ ، وأفضى الامر الى أخيه ظهير الدين (بهستون بن وشمكير) سنة ٣٥٧ ، حتى اذا توفي سنة ٣٦٦ تبوأ (قابوس) السرير في خلافة أمير المؤمنين الطائع لله العباسي

ولد قابوس في احضان الثراء والنعمة . وارتشف الرجولة من ينبوعها ، أعني العصاميين أباه وعمه . وعلمته التجاريب التي مرت على بيتهم أن نوال المعالي ، منوط بسهر الليالي . فنشأ جامعاً لرقة الرخاء الذي ولد فيه ، وخشونة الحروب التي تقلبت عليهم مدة أبيه . وأكسبته تصاريف السياسة بصراً بالعواقب ، مقروناً اليه سوء الظن بالناس ، فكان كيساً حازماً مستبداً

ولما توفي أخوه بهستون سنة ٣٦٦ قام قابوس بأعباء الملك ، فأنفذ اليه أمير المؤمنين الطائع لله الخلع السنية ، والعهد على طبرستان وجرجان ، ولقبه « شمس المعالي »

ونشأت في المشرق فتنة بين عضد الدولة ابن بويه وأخيه فخر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس فاستولى الاول على بلاد الثاني الذي لجأ الى قابوس ، فرعى قابوس جواره وأبى أن يسلمه الى أخيه ، فأدّى ذلك الى اكتساح عضد الدولة مملكة قابوس سنة ٣٧١ واستيلائه عليها ، فخرج قابوس منها لاجئاً الى خراسان

وبعد سنتين تسنى لفخر الدولة أن يعود الى ملكه الضائع ، وكانت بلاد قابوس داخلة فيه ، فشاور فخر الدولة وزيره الصاحب ابن عباد في ردّ ملك قابوس اليه ، فلم يوافقه الصاحب . وأرى أن بعض ما في (كمال البلاغه) من الرسائل التي دارت بين قابوس والصاحب بن عباد كان في هذا الموضوع

وفي سنة ٣٨٧ توفي فخر الدولة ـ الواضع يده على مملكة قابوس ـ فأعد قابوس في السنة التالية حملتين عسكريتين : احداهما بقيادة خاله الاصبهبد تغلبت على جبل شهريار ، والثانية بقيادة ابن سعيد استولت على آمد . ثم كتب أهل جرجان الى قابوس يستدعونه اليهم من نيسابور ، فسار اليها ، وزحفت حملتا الاصبهبد وابن سعيد لتعضيده ، فدخلها في شعبان سنة ٣٨٨

واغترّ الاصبهبد بما ناله قابوس من معونته في استرداد ملكه ، وحدث نفسه بالملك ، وفي (كمال البلاغة) رسالة من قابوس اليه في خلال هذه الازمة . واتفق ان رستم بن المرزبان خال مجد الدولة بن فخر الدولة ابن بويه كان مستوحشاً من أخته وابنها فسار بعساكره من الري فهزم الاصبهبد وأسره واظهر دعوة قابوس بالجبل ، فانضافت مملكة الجبل الى مملكة جرجان وطبرستان ، وفتح

لقابوس بعض بلاد الري . وفي هذه الحقبة استولى ابن سبكتكين على خراسان ، فراسله قابوس وهاداه ، وصالحه على سائر أعماله . وتولى ابنه (منوجهر) ولاية طبرستان ومايليها

واختزن قابوس في قلبه قسوة على كثير من الناس في المدة التي زال فيها ملكه بين سنتى ٣٧١ و ٣٨٨ ، فلما عاد اليه سلطانه واستفحل صار شديد السطوة مرهف الحدّ ، وأسرف في القسوة والاستبداد اسرافاً أكسبه بغض شعبه له ، ووحشة نفوس جنده منه ؛ وبينما هو غائب عن عاصمته في احدى القلاع أجمعوا في جرجان على خلعه ، وساروا اليه فامتنع عليهم في القلعة ، فاكتفوا بانتهاب موجوده ، وعادوا الى جرجان وجاهروا بالثورة . واستدعوا ابنه منوجهر من طبرستان فأسرع اليهم مخافة ان يولوا غيره ، ووافقهم كرهاً على أن يطيعوه ويخلع أباه

وسار قابوس من حصنه الى (بسطام) يقيم بها حتي تضمحل الفتنة ، فساروا اليه وأكرهوا منوجهر على السير معهم . فلما اجتمع الوالد وولده علم قابوس بحقيقة الحال فآثر الانفراد بالعبادة ، وأذن لابنه بولاية الملك لئلا يخرج عن بيتهم . ولكن زعماء الثورة من الجند ظلوا مرتابين من قابوس ؛ فساروا اليه ومنعوه مما يتدثر به في شدة البرد ، فجعل يقول « اعطوني ولو جل دابة أتدثر به » فلم يعطوه ، فهلك سنة ٤٠٣ لسبع وثلاثين سنة لولايته وخمس عشر سنة لاسترداد ملكه . ونقل الى جرجان فدفن فيها

أدبه :

لا أعرف أسماء الشيوخ الذين اقتبس قابوس منهم أدبه الغض

وعلمه الجم ، ولكن الذي وقفنا عليه من معارفه كاف للدلالة على الجهد المبذول في سبيل تثقيفه ؛ حتى أن خطه أيضاً كان في نهاية الحسن ، وكان الصاحب بن عباد يقول اذا رأى خطه « هذا خط قابوس ، أم جناح طاووس »

كان عصر قابوس عصر التأنق في الاسجاع القصيرة بلا تكلف ، والتفنن ببدائع اللفظ من غير افراط . وكان النثر ينتقل يومئذ من الاسلوب المرسل ، الممتاز بجزالة اللفظ ، وتناسق الاوضاع ؛ الى التزام السجع ، والتقيد بالجناس ، والتوسع في أنواع البديع. غير ان ذلك الاسلوب الجديد أتيحت له يومئذ أقلام فحول ملكوا ناصية اللغة ، وازدادت معرفتهم بأسرار البلاغة ، واتسعت حيلتهم في ابتداع طرائق البيان

ورسائل قابوس شاهد محسوس على انه من أهل هذه الطبقة الرفيعة ، وانما قصرت عنهم شهرته بين عامة زماننا لان رسائله كانت نادرة الوجود في الاقطار (١)

وحسبنا شاهداً على ان قابوس كان أديب الملوك ومليك الادباء قول أبي منصور الثعالبي في اليتيمة : « أختم هذا الجزء الثالث من كتابي بذكر خاتمة الملوك وغرة الزمان، وينبوع العدل والاحسان . من جمع الله له الى عزة الملك بسطة العلم ، والى فصل

---

(١) ان صاحب (كشف الظنون) على كثرة ما اطلع عليه من الكتب العربية التي ملأت خزائن القسطنطينية في وقته لم يعرف (كمال البلاغة) الا من غيره فقال انه لشمس المعالي قابوس ؛ ولو رآه بنفسه لذكر عبدالرحمن اليزدادي. وقد سرى هذا الخطأ الى مؤلف (قاموس الاعلام) فقال في ترجمة قابوس : وله مؤلفات في جملتها (كمال البلاغة)

الحكمة نفاذ الحكم . فأوصافه لا تدرك بالعبارات ، ولا تدخل تحت العرف والعادات ؛ وآن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيرته وذكر خصائصه ومآثره » . وقول ابن الاثير (في حوادث سنة ٤٠٣) : « وكان قابوس غزير الادب وافر العلم . له رسائل وشعر حسن . وكان عالماً بالنجوم ، وغيرها من العلوم »

ومن شواهد علمه الرسائل الفلسفية التي في آخر (كمال البلاغة) قال اليزدادي « وقد ختمت الكتاب بها ليتعجب الناس منها ، فانه موضع العجب لمن أنصف واعترف بالحق . فمن أصعب الامور استعمال الكلام الرسائلي في شرح المعاني الفلسفية بتلك الفصاحة والعذوبة التي يعجز عنها الخلق قاطبة ! »

رسائل قابوس :

كانت (رسائل قابوس) من الكتب التي نسمع بها ولا نراها ؛ حتى ورد في الايام الاخيرة من حضرة الفاضل السيد نعمان الاعظمي ببغداد الى ادارة المطبعة السلفية بالقاهرة كتاب مخطوط عنوانه (كمال البلاغة) لعبد الرحمن بن علي اليزدادي وفي آخره « تمت الرسالة الهروية .. وفرغ من تحريرها .. احمد بن عثمان بن محمد .. يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٦٣٣ [1] »

وهذا المخطوط في ٢٧٤ صفحة بطول ١٩٦ مليمتراً وعرض ٨٠ وفي كل صفحة ١٧ سطراً . وهو بخط نسخي حسن الضبط . ولما تصفحته وجدته مؤلفاً من كتابين أولهما (كمال البلاغة) والثاني كتاب سمي في خطبته باسم (قنية المترسل وغنية المتوسل)

(١) ان رسم الرقم ٦ من تاريخ الكتابة يحتمل أن يكون ٩ لولا أن ظواهر النسخة تدل على قدمها فنرجح أنها من القرن السابع لا من القرن العاشر

ثم سمي في نهايته باسم (الرسالة الهروية) [1] ولم نعرف اسم مؤلفه لسقوط ورقة أو أكثر من المجموعة ، فضاع بسبب ذلك مقدار وجيز من آخر (كمال البلاغة) ومثله من أول (قنية المترسل) . ومن الغريب ان أرقام الصفحات متصلة في موضع النقص ، ولكن (كمال البلاغة) ينقطع في نهاية الصفحة ١١٤ ويأتي كتاب (قنية المترسل) في رأس الصفحة ١١٥ مبتور الاول

وعند ما تبين لنا النقص في مفصل الكتابين من هذه النسخة علمنا أن لدى السيد نعمان الاعظمي نسخة ثانية من كمال البلاغة فاستحضرناها بالبريد الجوي . وهي تتضمن بعد (كمال البلاغة) طائفة من منثور معاصري قابوس ومنظومهم ، وفي مقدمتهم الصابي وابن عباد والباخرزي والميكالي والعتبي والضبي وغيرهم من المترسلين والشعراء . وفي خلال المجموع نبذ من (المنثور البهائي) لعلي بن محمد بن خلف ، وهو الذي نقل به حماسة أبي تمام من النظم الى النثر ووسمه باسم بهاء الدولة ابن بويه

وهذه المجموعة في ١١٦ صفحة بطول ٢٦ سنتمتراً وعرض ١٥ وفي كل صفحة ٢٠ سطراً . وهي بخط فارسي معلق وليس فيها اسم كاتبها ولا تاريخ كتابتها . و (كمال البلاغة) لايزيد في هذه النسخة على عشرين صفحة من صفحاتها الكبيرة الدقيقة الخط .

---

(١) هو كتاب في انشاء الرسائل على مثال (انشاء الرسائل لمرعي) و (انشاء الرسائل للعطار) . وجاء في خطبته أن مؤلفه ألفه في أصفهان برسم « جمال الخطباء أبي المطهر حامد بن رجاء » وابنه « رجاء بن حامد بن رجاء » . وفي أواخر الكتاب اشارة الى أن المؤلف معاصر لفخر الملك فلم أدر هل هو أبوغالب محمد بن علي وزير آل بويه أم أمير آخر متأخر عنه

وقد أسقط ناسخها من مقدمة اليزدادي ما يتعلق بأنواع البديع ، وأهمل بيانات اليزدادي التي قدمها بين يدي بعض رسائل قابوس ، ولم يورد الرسائل الفلسفية التي في آخر الكتاب

وأهم ما استفدناه من هذه النسخة الثانية تكميل نقص مهم وقع في النسخة الاولى ، فان الناسخ جعل رسالتي قابوس الى الوزير ابن العتبي رسالة واحدة اذ أسقط آخر الاولى وأول الثانية . فأكملنا هذا النقص من النسخة الثانيــة ، ووضعناه بين هاتين العلامتين [ ] كما فعلنا في سائر زيادات النسخة الثانية على النسخة الاولى التي اعتمدناها في الطبع لكمالها وصحتها

وينقسم كتاب (كمال البلاغة) الى أربعة أقسام : الاول بيان أنواع البديع التي وجدها اليزدادي في كلام قابوس مما لم يسبقه اليه أحد . والثاني رسائل قابوس الى غير الصاحب ابن عباد . والثالث رسائله الى الصاحب وأجوبة الصاحب عليها ، وأظن ذلك كان في المدة التي خرج فيها الملك من يد قابوس واستولى عليه فخر الدولة ابن بويه الذي كان الصاحب وزيراً له . والقسم الرابع رسائل قابوس الفلسفية

ومن أبدع ما وُصفتْ به نفس هذا الملك الحازم الاريب قول معاصره أبي نصر العتبي في تاريخه المعروف باليميني (١) :

« فلله شمس المعالي في همة له بين المجرّة مجراها ، وفي بحار الكرم مجراها ومرساها * فلم يسمع في شيوخ الملوك بأشرف

(١) هو التاريخ البليغ المسجع الذي شرحه الشيخ أحمد المنيني وطبع في جزءين بمصر سنة ١٢٨٦ وفيه أقدم سيرة كتبت لقابوس ، وهي في آخر الجزء الاول وأول الجزء الثاني منه ، ويتخللها بعض ماقيل فيه من الشعر

منه قيمة ، وأوطف ديمة ، وأكرم شيمة ، وأصدق بارقة مشيمة * وأوفر عقلا وتحصيلا ، وأظهر جملة وتفصيلا * وأغذى للنفس بعفاف الحكمة ، وأجزى للبدن بكفاف الطعمة * قد فطم النفس عن رضاع الملاهي ، فلم يعرف اللهو ما هو ولا البطالة ماهي * علماً منه بأن الملك واللهو ضدان ، وان ليس لالتقائهما تدان * نعم ولا أحرص على انصاف الرعية ، وآخذ بأطراف العدل في القضية * وأبرع في الآداب والحكم ، وأجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم * ورسائله موجودة في البلاد ، عند الافراد* لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق احسانه . . . الخ »

وبعد فان رسائل قابوس في منزلة عالية من البلاغة ، ومافيها من بديع فسلس مطبوع ، وسيكون لانتشار محاسنها على ألسنة الناس بعد طبعها أثر يظهر على أسلات أقلام الأدباء ، كما رأينا فيما نشر قبلها من الآثار الأدبية التي من درجتها . وأما قول اليزدادي « إن احداً لم يسمع كلاماً مؤلفاً بالعربية مثل كلام هذه الرسائل ، وليس وراء هذا نهاية يرجى بلوغها ، لأن اللسان العربيّ قد أتى منه ببيضة العقر » فانا نعدُّه من اغراق الاعاجم الذي لايوافقهم عربي عليه

وبالجملة فان هذه الرسائل من أبدع ماأنتجته قرائح أهل القرن الرابع . واننا بقدر ما كنا آسفين على فقدها نسر الآن بنشرها ، لما في ذلك من الفائدة المحققة

شعر قابوس

نظم قابوس الشعر بالعربية والفارسية ، وكان مقلا فيهما .
ومن شعره العربي قوله في استيلاء ابن بويه على بلاده سنة ٣٧١ :

لئن زال أملاكي ، وفات ذخائري ،
وأصبح جمعي في ضمان التفرق
فقد بقيت لي همة ما وراءها
منال لراجٍ ، أو بلوغ لمرتقي
ولي نفس حر تأنف الضيم مركباً
وتكره ورد المنهل المتدفق
فان بلغت نفسي فلله درها
وان بلغت ما أرتجيه فأخلق
ومن لم يردني ـ والمسالك جمة ـ
فأي طريق شاء فليتطرق

وقوله :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا :
هل حارب الدهرُ الا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر بأقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي الزمان بنا
ونالنا من تمادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الا الشمس والقمر

وقوله ـ ولعل ذلك في حادثة خلعه ـ :

بالله لا تنهضي يا دولة السفل
وقصري فضل ماأرخيت من طول
أسرفت فاقتصدي ، جاوزت فانصرفي
عن التهور ، ثم امشي على مهل
مخدّمون ولم تخدم أوائلهم
مخولون وكانوا أرذل الخول

وكتب الى عضد الدولة ابن بويه ، وبعث له سبعة أقلام :

قد بعثنا اليك سبعة أقلا
م لها في البهاء حظ عظيم
مرهفات كأنها ألسن الحيا
ت قد جاز حدها التقويم
وتفاءلت أن ستحوي الاقاليم
بها كل واحد اقليم

وقوله ـ وهما مما كان يتغنى الناس به ـ :

خطرات ذكرك تستثير مودتي
فأحسّ منها في الفؤاد دبيبا
لا عضوَ لي الا وفيه صبابة
فكأنَّ أعضائي خلقن قلوبا

ومن شعره الفارسي هذا الرباعي :

شش چيز درآن زلف تو دارد مسكن :
بيچ وكره وتاب وخم وبند وشكن .

شش چيز دكر در دل من كرده وطن :
عشق وغم ومحنت وألم ورنج وحزن .

وتعريبه « ان في شعر سالفتك ستة أشياء اتخذَته مسكناً لها : التجعد والتعقد والالتواء والانحناء والارتباط والنعومة . وان في قلبي ستة أشياء أخرى اتخذَته وطناً لها : العشق والغم والمحنة والالم والمشقة والحزن »

عبد الرحمن اليزدادي

آل يزداد من البيوت المعروفة في الاسلام بالعلم والادب والجاه . وقد اشتهر منهم في القرن الثالث أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد الذي اتخذه أمير المؤمنين المستعين العباسي وزيراً له سنة ٢٤٩

ومنهم في القرن الرابع أبو العباس اليزدادي المعاصر للشمس محمد بن أحمد المقدسي البشاري وذكره في (أحسن التقاسيم) المؤلف في فارس سنة ٣٧٥

واشتهر منهم في الحديث أبو السفر يحي بن يزداد

أما عبد الرحمن بن علي اليزدادي فلم أظفر له بترجمة فيما عندي من الكتب ، رغم ما بذلت في سبيل ذلك من جهد ووقت ، وفوق كل ذي علم عليم

القاهرة محب الدين الخطيب

كمال البلاغة

وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير



و به الثقة

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عليٍّ اليَزْدادِيُّ :

إني كنتُ أنظرُ فيما ألَّفهُ قُدامةُ بنُ جعفرٍ بذِكرِ الكِتابةِ، وأفْرَدَهُ مِن فُصولٍ مستخرَجةٍ من أثناءِ رسائلِ الكُتَّابِ وكلامِ البُلَغاءِ، وأبانَ عنه من محاسنِ مَعانٍ وألفاظٍ فصيحةٍ وَجَدَ فيها، ودَلَّ عليه من نُظومٍ غريبةٍ [عربيةٍ][1] وذَكَرَ أنها في الحُسنِ والجَوْدةِ غايةٌ * فوَجَدْتُ في رسائلِ الاميرِ شمسِ المعالي [قابوس بن وشمكير] كثيراً مما ذَكَرَهُ وأشارَ اليه مما جَمعَ تلكَ الانواعَ بأفصحَ وأوجزَ من تلكَ الالفاظِ وأكملَ في تلكَ المعاني، مع زياداتٍ في غرائبِ النَّظمِ وبدائعِ المعاني لم يكن خَطَرَ ببالِ قُدامةَ أن تَتَّسعَ لمثلِهِ قُدرةُ فصيحٍ بليغٍ ويأتيَ به أحدٌ من ذوي البَراعةِ * وأبَتْ نفسي أن تبقى تلكَ البدائعُ تحتَ غِطاءٍ

---

(١) كل ما كان بين هاتين العلامتين [ ] فمن زيادات النسخة الخطية الثانية على النسخة الاولى

في خَفاءٍ عن الافهام ، ولم تقنعْ مني إلاَّ بأن أتكلَّمَ عليها ، وأبيِّنَ عمّا تفرَّدَت به من الفضل على كلامِ غيرهِ ؛ فيقفَ أهلُ هـذه الصِّناعةِ على حقائقِ البلاغة ، وخصائصِ البراعـة ، وجواهرِ الـكلام ، ووجوه الصَنعة المُتقَنة ، والفِقَرِ المستحسـنة * إذ ليس غَرَضُ كُتَّاب أهلِ هذا العصرِ إلاَّ تتبُّعُ الأسجاعِ ، والاتيانُ بالألفاظِ الغَثَّـةِ ؛ دُونَ التميزِ بين الرَذْلِ الرَكيكِ والجَزْلِ المتين منها ، وسوءِ النظمِ وحسـنهِ ، وصوابِ وتوعِ الالفاظِ في مُوافقَـةِ المعاني . فصارَ هذا الانتقادُ مَطوياًّ عنهم لذلك ، فلا يحظَونَ بمعرفة حلاوَةِ مثلِ هذا الـكلام والتلذُّذِ به والتنبُّهِ عليه * وأنا أقولُ بلسانٍ مطلَق : إنَّ أحداً لم يَسْمَعْ كلاماً مؤلَّفاً باللغة العربية [والفصاحة الادبية] مثلَ كلام هـذه الرسائل في الفصاحةِ ، والوجازةِ ، والرَوْعةِ ، والعُذوبةِ ، واعتدال الاقسام ، واسـتواء الأوزان ، واتِّساقِ النظم ، وبَداعةِ المعاني ، وغرابة الأسجاعِ ؛ معَ سُهولةِ الالفاظِ ، وامتزاجِ الحروفِ [المتضادة و] المتجانِسة . وليس وراء هذا نهايةٌ يرجى بُلوغُها ، لأنَّ

اللسانَ العربيَّ قد أتى منه ببيضة العُقْر فلا ثانيةَ لها * ولهذا سمَّيتُ الكتاب : « **كمال البلاغة** » لانَّ هذا الكلام قد بلغ النهاية في الكمال * فمن أنكرَ قولي فليَبْرُزْ الى مَيدانِ الامتحان ، وليأتِ على دعواهُ بالبرهان

وقد كتبتُها واحدةً فواحدة . ودلَلْتُ على ما وقعَ فيها من نظائر الانواع التي ذكرها قُدامة وماهو أحسنُ وأبرعُ وأكملُ منها . ليتبيَّنَ التفاضلُ بينَ هذه الالفاظِ وبين تلك الالفاظ ، وبين هذه المعاني وتلك المعاني ، وتفرّدُها بالبدائع التي لا نظائرَ لها

وتركتُ كتبَ الأجوبة العائدةِ من أبي الفضل ابنِ العميد وابنهِ وغيرهما ، إلاَّ أجوبةَ [الصاحب] بنِ عبَّادٍ فاني كتبتُها آخرَ هذه الرسائل لخلَّتين : احداهما لدعواه العريضةِ كانت في هذه الصناعة ، وكَوْنهِ عندَ نفسهِ أن درجتَهُ في البلاغةِ والبراعةِ فوقَ درجةِ كلِّ من تقدَّمَهُ من بُلَغاء الكتَّاب . والثانيةُ لأنَّ محاسنَ الكلام وغرائبَ الصَنعةِ لا تظهر إلاَّ إذا قُوبلَ كلامٌ بكلام ، وعُرِضَ معنىً على معنى مثلِهِ

وذكرتُ عند مُفتتَح كلِّ رسالةٍ عددَ قرائنِ الاسجاع الواقعة فيها لئلاّ يُزادَ في الرسالة ولا يُنقَصَ منها

ثم استخرجتُ من هذه الرسائل أنواعاً لم يكن وَجَدها قُدامة فيما فتَّش من كلام الفصحاء . وتولَّيتُ تَسميتَها بما شاكلها من النعوت ، وعددُها أربعة عشرة .

وهي :

﴿ المُجَنَّح ﴾ كقوله : صامَ عن جوابِ ما نفَـذ اليه ، ونامَ عما لزِمَهُ في حقِّ الاعتمادِ عليه [١] * وكذلك : قد طال مُقام فلان فتجاوَزَ كلَّ طُول ، وأُقفِلَ بابُ رُجوعهِ فلا يُرجَى له قُفول [٢] *

و ﴿ المُتزاوِج ﴾ كقوله : فأني مؤمِّـلُ غَمام ، غيرِ جَهام . ومُعملُ حُسام ، غيرِ كَهام [٣] * وكذلك : فمَن مرَّ على أرجاء بحرِهِ الهيَّاج ، ونظرَ في لألاءِ بدرِهِ الوهَّاج [٤] *

و ﴿ المُمَثَّل ﴾ كقوله : وراضَ صعبًا ساءَ خُلُقه ، وأنهَضَ صُبحًا تبلَّدَ فَلَقُه * وحلَّ عَقْداً تولَّى الدهرُ شدَّه ،

---

(١) في ص ٣٤ (٢) مطلع رسالته السادسة الى الصاحب (٣) في ص ٣٥ . والجهام : السحاب لاماء فيه . والحسام الكهام : السيف الكليل

(٤) في ص ٤٢

وشَبَّ ضِراماً أصلدَ الزمانُ زَندَه[١] * وكذلك : يخالُ أنه مُكتفٍ بجاهِه وعِرضِه ، ومتعزٌّ بسمائه وأرضِه * ولا يشعرُ أني كُلٌّ لبعضه ، وطُولٌ في عَرْضِه[٢] *

و « المبالغة » كقوله : فانه مُعتكِفٌ مُقيم ، على ضامنٍ كريم * والكريمُ اذا ضمِنَ لم يُخلِف ، وإذا نَهض لفضيلةٍ لم يقِف[٣] * وكذلك : ويَبذُل لي نَخيلَةَ الوُدِّ ومَنْخولَهُ خيرَ مايَبذُل ، ويَجتني ثمرَةَ الفؤادِ وكلُّ جميلٍ يجنيهِ يَذبُل[٤] *

و « إبداع القرائن » كقوله : لاسيما إذا كان فيما بَدَرَ منه ساهِيا ، ولِما كَتبَ عليه سُوءُ الإتِّفاقِ ماحِيا[٥] * وكذلك : فأفاضَ في وصف ما تلألأَ من غُرَرِ أفعاله ، وأبرَّ على كل جميل بجماله[٦] * وكذلك : فالشيخُ من لا ينطلِق في لومه لسانُ لائم ، ولا تَتَّجه عليه ظِنَّةٌ إلاَّ من ظالم[٧] *

و « المُجانِسُ » كقوله : وكيف يُعرَضُ عمن تُعرِض رَفاهةُ العَيْش بإِعراضِه ، وتَنقَبِض الارزاقُ بانقباضه *

---

(١) في ص ٣٧ . والزند هنا : العود الاعلى الذي يقتدح به النار ؛ وصلد الزند : صوّت ولم يور (٢) في رسالته الى الاصبهبذ (٣) في ص ٣٩ (٤) في ص ٣٨ (٥) في ص ٤٣ (٦) في ص ٣٦ (٧) في ص ٣٥

وأضاءَ نجمُ الاقبالِ إذا أقبل ، وأهلَّ هلالُ الجدِّ اذا تهلَّل [١] *

و﴿المتضادّ﴾ كقوله : من أقعدَته نِكايةُ الايام ، أقامَته إغاثةُ الكرام * ومن ألبسَهُ الليلُ ثوبَ ظَلْمَائه ، نزَعه النهارُ عنه بضيائه [٢] *

و ﴿المتوأم﴾ كقوله : قاصِمُ الأصلاب ، وقاسِمُ الأسلاب [٣] * وكذلك : خالَمْتُ خَيْلَه ، وسالمتُ سَيْلَه [٤] *

و ﴿المَخَلْخَل﴾ كقوله : أثَّرتْ فيه خَجْلَةُ العِثار ، ونهَكَتْه ذِلَّةُ الاعتذار [٥] *

و﴿المُرَدَّد﴾ كقوله : ومن رامَ أن يَفْرِي فيها كما يَفْرِي ، ويَسرِي بنجومها كما يسري [٦] *

و ﴿المُتَشابه﴾ كقوله : وهاجَرَ بهَجْره ، وأصَرَّ على صُرْمِه [٧] * ومال الى الملال ، ولم يَصلَ نارَ الوِصال *

و﴿مُشابَهَةُ الصُورة﴾ كقوله : الترددُّ بين الرَخاء

(١) في رسالته الى الاصبهبذ . والجد : العظمة والحظ والغنى (٢) في ص ٤٥ (٣) في ص ٢٥ ، ثم في رسالته الى ابن ميكال (٤) في رسالته الى ابن ندويه . وخالمت خيله : صاحبتها وائتلفتها (٥و٦) في ص ٤٣ (٧) في ص ٢٥ ثم في رسالته الى الاصبهبذ

والبَأس ، والرَجاء واليأس * وكقوله : اذا حالف ، فأحسبُه قد خالف * وإذا أعار ، فأحسبه قد أغار [١] *

و ﴿ المَعْكُوس ﴾ كقوله : شيمَتهُ رفعُ الخامل الوضيع ، ووضعُ الفاضل الرفيع [٢] * وكذلك : فاعلمْ أنه لا يَسوءُني ما يَسرُّك ، ولا يسُرُّني ما يسوءُك * وإني لا أكرَه ما تُحبُّه ، ولا أُحبُّ ما تكرَهُه *

و ﴿ ذو نوْعين ﴾ كقوله : قد احتَجَبَ صُبحُ ذلك الامر ، وصارَ مطلوباً في ليلة القَدْر [٣] * (وفيه نوعان : المثل وابداع القرائن) * وكذلك : لاقتناء سَبِيكة الحَمْد ، واعتلاء عَرِيكة المجد [٤] * (وهما المتزاوج والمثل)

***

وأنا أبيّنُ الآن لِمَ سَميتُ كلّ واحد من هذه الانواع بما سَمّيتُ به :

أما المجنح فسميتهُ به لاني شبهتهُ بشيءٍ له جَناحان من قِبَل أنّ في أوّله سَجْعًا وفي آخره سجعًا وبينهما واسطة . كقوله : لازمٌ لما أتيته حِجابَ الخجل ، وعازمٌ

(١) في ص ٢٦ . ثم في رسالته الى ابن وندويه (٢) في رسالته الى ابن وندويه (٣) في ص ٣٥ (٤) في ص ٣٧

على غَسلِهِ بماء التنصل [1] * (فلازم في الاوَّل من القرينة الاولى ، وعازم في الاول من القرينة الثانية سجعان . والخجل والتنصل في آخرها سجعان . وما بين السجعين من الكلام واسطة)

وأما المتزاوج فسميتهُ به لأنَّ بإزاء كلِّ سَجْع سجعًا في القرينتين . كقوله : مُجتَلِب مَواجِبَ الشكر ، مُجتنِب مَذاهبَ العُذر [2] * (فمجتلب بازاء مجتنب ، ومواجب بازاء مذاهب ، والشكر بازاء العذر . وهذه كلها تزاوج وأسجاع)

وأما الممثل فسميتُه به لأن الكلام المستعمل فيه ليس مُختصاً بتفسيره بل هو كلامٌ آخَرُ له معنىً يُشبه المرادَ منه . كقوله : ولا يُعجبُني أن يكسوَ ضوءَ مَكارِمه كَلَفَ الخُمول ، ويأْذَنَ لطَوالع معاليـهِ بالأفول [3] * (فهذه تمثيلاتٌ كلُّها)

وأما المبالغة فسميتُه به لانه يتلو كلاماً تامًّا قد حصل

(١) في ص ٤٢ (٢) من رسالته السادسة الى ابن العتبي (٣) من رسالته الى الاصبهبذ

معناه ، وأحاطَتِ المعرفةُ بالمراد ؛ فذُكرَ فيه تأكيداً ومبالغةً به . كقوله : لِيجتَلبوا الخيرَ ، ويجتنبوا الشرَّ * ويكونوا من الخيرِ على أَمل ، ومن الشرِّ على وَجَل * (فقوله : ليجتلبوا الخير ويجتنبوا الشر ؛ كلامٌ تامٌّ في معناه . و : يكونوا من الخير على أمل ومن الشرّ على وجل ؛ اتمامٌ له ومبالَغةٌ فيه)

وأما **المجانس** فسميته به لأنّ اسمه مُشتَقٌّ من لفظ الجنس ، ولان بعض الكلام منه جنسٌ لبعض كقوله : أين الطَّبْعُ الذي هو للصُدود صَدُود ، وللتَّألُّف أَلُوف وَدُود [1] * (فالصُدود وصَدود من جنس واحد . والتألّف وأَلوف من جنس واحد)

وأما **المتضاد** فسميته به لأنَّ كلامَ القَرينَتين مشتملٌ على أضدادٍ كقوله : بما يُحدِثه الدهرُ من حالتيْ إرْضاءٍ وإشكاء ، وإضحاكٍ وإبكاء [2] * (فهذه كلها أضداد)

وأما **المذيل** فسميته به لأنّ قبلَ السَجْع في القرينتين سَجْعًا آخرَ متصلاً به ؛ فهو كالخلخال له . كقوله :

---

(١) من رسالته الى الاصبهبذ (٢) فاتحة رسالته الخامسة الى الصاحب تعزية

وأزالَ عنه خَجَلَ الكساد ، وأذاقَه لَذةَ نَيلِ المراد[١] * (أعني خجل الكساد في القرينة الاولى ، ونيل المراد في القرينة الثانية)

وأما **المردّد** فسميته به لتردُّدِ لفظ واحد في موضعين . كقوله : عقَدْتُ أملي به من صحَّة عقْدِه ، ووعَدْتُ نفسي فيه من ثَمَرةِ وعده[٢] * (أعني عقدتُ وعقده في القرينة الاولى ، ووعَدت ووعده في القرينة الثانية)

وأما **المتوأم** فسميتهُ به لأني شبَّهتهُ بولدين تَوْأَمين . وهما المولودان في بطنٍ واحد . أعني : قاصِمَ الأصلاب ، وقاسِمَ الأسلاب[٣]

وأما **المتشابه** فسميته به لوقوع الكلمات المتشابهة الالفاظ والحروف في القرينتين . أعني : هاجَرَ بهَجْره ، وأصَرَّ على صُرْمِه[٤] * (فهاجر وبهجره متشابهة الحروف . وأصَرَّ وصُرْمه كذلك)

وأما **مشابهة الصور** فسميته به لتشابه صُوَر الكلمات في الخطّ . كقوله : إذا حالَف فأحسبُه قد خالف * وإذا أعارَ

(١) خاتمة رسالته الثامنة الى ابن العتبي (٢) في ص ٣٥ (٣) في ص ٢١ ثم في رسالته الى ابن ميكال (٤) في ص ٢١ ، ثم في رسالته الى الاصبهبذ

فأحسِبُه قد أغار[١] * (فخالف وخالف في صورة واحدة . وأعار وأغار كذلك . وأحسُبُه وأحسِبُه في صورة واحدة)

وأما **المعكوس** فسميتُه به لانعكاس الالفاظ في القرينتين باختلاف المعنى . كقوله : إني لا أجْتَوِي ما تجْتَنِيه . ولا أجتني ما تجتويه *

وأما **ابداع القرائن** فسميته به لأنَّ القرينةَ الثانية فاضلةٌ في البِدْعة على القرينة الاولى . كقوله : فقد شاعَ هذا الفعلُ في جميع البشر ، بل صارَ غُرَّةً على جَبْهَةِ الشمس والقمر[٢] * (هذا كلامٌ ينادي على نفسه بما هو فيه من البِدْعة ، ولا مطْمَعَ لأحدٍ في الاتيان بمثله ، إذ هو معدومُ النظير . وليس في طَوْق أحد من بُلغاء الكتَّاب أن يأتيَ بمثل هذا التمثيل البديع في معناه . ولا يقدر عليه إلاَّ المتبحِّرُ في العلم والقادرُ على تصريف الكلام)

وكقوله : قد خُلِّدَ ذلك في بدائع الأخبار ، وكُتِبَ بسواد الليل على بياضِ النهار[٣] * (هذا كلام لا أعرِفُ في جَوْدة صنعته وغرابة معناه كلاماً . لأنه مثَّلَ سواد الليل

(١) في ص ٢٢ ، ثم في رسالته الى ابن ونديه (٢و٣) في ص ٣٨

بالمداد وبياض النهـار بالقِرْطاس ؛ وهما شيئان ليس لهما نظيران في البقاء . وهذه القرينة الثانية نتيجةُ طبع كالماء رَقِيق . وصُنْعٍ في تأليف الكلام دقيق . وليس مما يَسمَحُ به طبعُ الكُتَّاب . وتَفي به قرائحُهم . فاني قد أجلْتُ الفِكْرَ في عِدَّةِ الفاظٍ رائيةِ الأواخر فلم أجدْ منها ما يقعُ مَوْقِعَه في الوِفاق.وكان ما أتى وحَضَرَ في غايةِ النفورِ منه والشُذُوذ عنه . ولا يَعْرِفَ ما أقولُه إلاَّ من يعالِجُ التَسْجيعَ)

وكقوله : ورَفَعَ عن الأرض سَطْوَةَ الزَلازل، وقَضَى بما يَراهُ على القضاءِ النازل[1] ❊ (هذا إبداعٌ وأيُّ إبداع ، وإعجازٌ وأيُّ إعجاز . وما أجَلّه من كلام ؛ وأشرفَهُ من معنىً . لأنَّ الأتيان بالقضاءِ النازلِ قريناً لسَطوةِ الزلازل عجيبٌ بديعٌ جداً ، ومما لا يهتدي اليه إلاَّ مَن هَداه الله بنور علمه . وكلُّ إفراطٍ في مدحه تقصير ، وكل إكثار في الكشف عن بدائعه اختصار)

وأما **ذو نوعين** فسميته به لاجتماع النوعين من هذه الاوصاف والالقاب فيه . كقوله : لَمَّا قابَلْتُ بصَفيري

---

(١) من رسالته الى الاصبهبذ

زَئِيرَه ، وما ساجَلْتُ بِبَعِيثي جَرِيرَه [١] * (وفيه نوعان : المُجَنَّحُ وإبداعُ القرائنِ ، ولكنه إبداعٌ قد غَبَّرَ في وُجوه أقرانهِ في البدْعة والغرابة ، وكلامٌ خارجٌ عن طريقِ الكُتَّاب ، لأَنَّ ذِكْرَ البَعيثِ وجَرِيرٍ بعيدٌ عن الأوهام والأفهام ، وليس مما يَخطُر ببال أحدٍ منهم أو يَقَعُ في خَلَدِه . فكلٌّ من تتأتى له القرينةُ الاولى يجولُ فكْرُه للقرينةِ الثانية في أن يأتيَ بما يُشاكلُ الاصواتَ من الصفير والزئير . ولعلَّهُ إذا اجتهدَ وأبعَدَ وتعمّق سَنَحَ له أن يقول « بيَسيري كثيرَه » . ولا يهتدي لمثلهِ إلاَّ من كان طبعُه هذا الطبعَ وقريحتُه هذه القريحَة . وكان غزير العلم ، عارفاً بالاخبار ونوادِر الأمثال . ولكن بقيَ أن يُفطَنَ لغَوْر ما صَنَعَه وأتَى به)

وكقوله : لأَنَّهُ بيانٌ قَصُرَ عن نَيْلهِ لسانُ البلاغةِ ، ولم يأت بمثلهِ فُرسانُ هذه اللغة [٢] * (وفيه أيضاً نوعان : المتزاوجُ وإبداعُ القرائن . إلاَّ أنه بخِلافِ نظائرِه في استحقاقِ اسم البلاغة ، وليسَ كسائرِ ما أتَى عليه الوصفُ من بدائعِ

(١) في ص ٤٢ (٢) في ص ٤٣

هذه الرسائل ، اذ هو بديعٌ نادرٌ في الاستعمال . ولو أنَّه جاء بلفظٍ غيرِ « الفُرسان » فقال « أئمة هذه اللغة » أو « فُصحاء هذه اللغة » أو « المُبَرِّزون في هذه الصِّناعة » لكان ذلك لفظًا مُبْتَذَلاً فذهبَ ماؤُه ورَونقه . وليست تَفي عبارتي في الكشف عما في مضمونه من مكنونِ البِدْعَة الذي لا يقدِرُ اللسانُ على إبرازِه بالنطق ، فأنا إن ادَّعيتُ أن أصِفَه حقَّ وصفِه كنتُ كمن يدَّعي مِساحَةَ الأرض بذِراعِه)

وكقوله : خانَهُ الدَهرُ فأخْنَى على حاله ، وعانَهُ بعَيْنه فهوَى نجمُ إقبالِه[1] (وفيه أيضًا نوعان: المُجَنَّحُ والممَثَّل. ولكنَّه كلامٌ يُعجِزُ البلغاءَ في الصِناعَة عن مُداناتِه ، ويُضِلُّ أذهانَهم دونَ أن يَطُوروا بجَنَباتِه[2] إذ هو جامعٌ لفنونٍ كثيرةٍ من التَصَرُّف : بين ألفاظٍ عَذْبَة مُتجانِسَة ، ومَعانٍ شريفة . أعني خانه فأخنى على حاله ، وعانه بعينه فهوى نجمُ إقباله . وأما إضافةُ الاقبال والهُوِيّ الى النجم ووصفُ المُمْتَحَن به فمن الحِذْق في الكلام)

(١) في رسالته الثالثة الى ابن العتبي (٢) أي يحوموا حول جنباته

وكقوله : تَلوحُ مَسَرَّةُ اليُسْر على جَبينهِ ، وتُصبِحُ بانقضاءِ العُسْر أسِرَّةُ يمينه[1] *(هذا كلامٌ قد بلغ النهايةَ في البداعة والبَراعة والفصاحة والعُذوبة . بل هو أبدَعُ وأبرَعُ من كلّ ما وصفتُه من فِقَر هذه الرسائل. وعبارَتي تقصُرُ عن وصفهِ بمستحِقّه فأقول : إن هذه اللغةَ العربيةَ قد عادَتْ في نَشْأةٍ أخرى بهذه الطريقةِ البديعةِ . والنظرُ والتأمُّل يكشفان عن حقيقة ما أقولُه)

وكقوله : وما دام هو للفرصة فيه مُرْصِدًا ، ولأنجازِ ما وآهُ معتقِدًا[2] * كان الرَّجاءُ كنَوْر في كِمام . والوفاءُ كنُور في ظلام * ولا بدَّ للنَوْر أن يتفتّح ، وللنُور أن يتوَضَّح[3] *(وفيه أيضاً نوعان: التزاوجُ والمبالغة .إلاّ أن هذا كلام عظيمُ الشان ، جليلُ الخَطَر ، شريفٌ معجِزٌ . ودَرَجتهُ أرفعُ من أن يبلغَهُ وصفي في الابانة عن كُنْهِهِ . وهو كما قال النبي عليه السلام « انَّ مِنَ البيانِ لسِحْرا » . وهذا ذلك البيانُ الذي أبتُّ الحُكْمَ بأنّه قد لا يؤتى له بنظِير ، فالسُكوتُ عن مَدْحِه مَدْحُه ، والاقرارُ

(١) في ص ٣٦ ، وهنالك تفسيره (٢) وأى الشيء : ضمنه (٣) في ص ٣٩

بالعجزِ عن وَصفِه وصفُه)

وكقوله: الدهرُ شرٌّ كلُّه، مفصَّلُه وَمُجمَلُه * مَرْكَبُ النَوائب، وَمَلعبُ العَجائب (١) * (وفيه أيضاً نوعان: التَوأمُ وَإبداعُ القَرائن. لكنَّ ألفاظَ هذه القرائنِ قد اجتمعَ فيها من وَصْفٍ للدهر، شاملٍ لجميع مَعانيه، مالو تطابَقَتِ البصائرُ النافِذَةِ، والأفهامُ الثاقبَة، والعباراتُ المُتقَنة، لَقَصُرَ ذلك كلُّهُ عمَّا عبَّرَتْ عنه هذه القرائنُ الاربَعُ من معنًى واحدٍ يُبْنَى على مَعانٍ كثيرة، فهو البديعُ الممتَنِعُ، والمُعجِزُ المُحيِّرُ. ويكفيني من مُتأمِّليه إدراكُ ما في ضِمْنِه من عَجيبِ الصَّنعة، حيث الاتيانُ بمثله والقول في وصْفِ هذه الرسائل سهلٌ هيِّنٌ، ولكنّ العمل عليها صعبٌ شديد. كما قالَ ابو تمَّام:

لَهانَ علينا أَن نَقُولَ وَنَفْعَلا

وأما قوله « ولا يَعْلَمُ أنَّ الانسانَ يسيرُ دائماً، على الأشهَبِ ساهِراً وعلى الادْهمِ نائماً (٢) » فانه كلامٌ عُلويٌّ شريف، ومعنًى حِكْمِيٌّ بديع. أتى معه برهانه، واقترنَتْ

(١) في ص ٤٠ (٢) من رسالته الى علي بن الفضل

به حُجّته وتِبْيانُه . وليس في قُوَّة الكاتِب الإتيانُ بمثلِ هذه المعاني السحرية ، بل هو كلامُ الحكماء الذين تتشعَّب أفكارُهم في دقائقِ المعاني

***

وأنا إن رُمْتُ العِبارَةَ عن بدائعِ هذه الرَّسائل عَيِيتُ به لاعجازها ، ولأَنه كلامٌ مُبانٌ ـ في الفصاحة والعذوبة والبِدعة والايجاز ـ للكلام المعهودِ الجاري على ألسنةِ الناس . فأقول بلسان طويل : ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطِباعيّ ؛ بل هو إفاضةُ القُوَّة العُلويَّة . ومن شكَّ في قولي فليتصفَّحْ رسائِل المتقدِّمين والمتأخّرين من الكتاب ، وخُطَبَ الفصحاءِ المذكورين ، ليظهرَ له الحقّ ؛ وما أنا إلاّ كخازنٍ ضنينٍ بها ، عارفٍ بقيمتها ، يُحِبُّ عَرْضَها على أهل المعرفةِ والبَصَر ، ليتعجَّبوا من بدائعها ، ويعْرِفوا فضلَها وشرفَها على جميعِ الكلام بهذه اللغة

***

وله أربع رسائلَ أخَر ، منها ثلاثٌ في علم الأوائل ،

وواحدةٌ في ذكر النبي عليه السلام وصحابته قد ختمت الكتاب بها ليتعجَّبَ الناسُ منها، فانها مَوضعُ التعجُّب لمن أنصفَ واعترفَ بالحق. فمن أصعب الأمور استعمال الكلامِ الرسائليّ في شرح المعاني الفلسفية، بتلك الفصاحة والعُذوبة التي يعجز عنها الخلقُ قاطِبَة

***

وإذ قد فرغتُ من وصف البلاغات الكتابيَّة، والفصاحات الرسائلية، والألقاب المحْدَثَةِ لها، فاني عائد إلى كَتْبِ (الرسائلِ الشمسية) بأعيانها واحدةً بعدَ واحدةٍ، ليتأمَّلَهَا المستبصِرُون، ويقضُوا عَجَبًا من البدائع التي جاءت فيها معدومةَ النظائر، ويعلموا انَّ ما ادَّعيتُه من فضلها على جميع الكلام باللغة العربية حقّ. مع ما أنَّه قد أوقَعَ كُتابَ هذا العصرِ في شُغْلٍ شاغِل، فانَّهم لا شك بعدَ نظرِهم فيها يَطمعُون في الاقتداء بها، ويُقدِّرون أن مرامَه سَهْلٌ ممكنٍ، والطَمَعَ في الاتيانِ بمثلهِ مَوردٌ غيرُ مُصدِرٍ. وطالبُه يتعَبُ وينْصبُ. ثم يخسَر ويَعجز، فيصدُقُ فيه قولُ بشّارِ بنِ بُرْد:

ألا أيُّها الحاسِدُ المُبْتغي نُجومَ السماءِ بسَعي أمَمْ
سَمِعْتَ بمَكرُمةِ ابن العَلاءِ فأنشأتَ تطلبُها لستَ ثَمّ

وهذه رسالة له الى ابن العتبي

وزير والي خراسان

في تأخُّرِ الجواب ، وابطاء الرسول

وهي احدى وعشرون قرينة

تَرْكُ الجواب ، داعيةُ الارتياب * والحاجة الى الاقتضاء ، كُسوفٌ في وجهِ الرجاء [1] * وقد صامَ الشيخ عن جواب ما نفَذَ إليه ، ونام عما لَزِمَه في حقِّ الاعتماد عليه [2] * وامتَدَّ مُقامُ فلانٍ حتى ليس له حَدٌّ يقِفُ عنْدَه ، ولا أمَدٌ ينقطِعُ البُعْدُ بعدَه * أفيستَحسِنُ الشيخُ أن يكونَ هذا جَزاءَ من جعَلَهُ مَلاذا ، وعُمْدَةً ومعاذا * وأن يبقى ذلك الأمَل ، متردِّداً بين الرَّيث والمَهل * أو يَرَى أن تخرَسَ فيه ألسنةُ الحمد ، وتلتوِيَ عليه حواجِبُ المجد * فقد احتَجَبَ صبحُ ذلك الامر ، وصارَ مطلوباً في

(١) الاقتضاء : الطلب (٢) في ص ١٩

ليلة القَدْر (١) * ان كان أنزلَه من قلبه ناحِيَةَ النسيان ، وباعَ جليلَ الذكر به في سُوق الخُسْران * فسيَستحيي له فضلُه من فعلِه ، وكفى به نائبًا عنّي في عَذْله * وإن كانَ لعُذْرٍ دَعاه إلى التواني ، فقد أرْبَى ذلك على سَيرِ السَواني (٢) * كلا فان كَرَمَه يراودُه على أشرفِ الخصال ، ويأبَى له أن يُخلّ بمحاسِنِ الافعال * ولا يرضى منه بإخسار صَفْقةِ الاحسان وايقاع النَّكرة بين الوفاء والضّمان * ليس هذا خِطابًا سلَكَ سبيلَ عتاب ، أو صَدرَ عن ضميرٍ مرتاب * فالشيخُ من لا ينطَلِقُ في لومه لسانُ لائم . ولا تتّجه عليه ظِنَّةٌ إلاَّ من ظالم (٣) * [(٤) ولا سوءَ ثقةٍ بما عقَدْتُ أملي به من صِحَّةِ عقْدِه . ووعدتُ نفسي فيه من ثمرة وعده (٥) فاني مُؤمِّلُ غمام ، غيرِ جَهام . ومُعْمِلُ حُسام ، غيرِ كَهام (٦) * وحاشاهُ أن يتوسَّطَ أمراً ثمَّ يتسهَّلُ في إهماله ،

(١) في ص ٢٢ (٢) يشير الى المثل العربي المشهور « سير السواني سفر لاينقطع » . والسواني جمع سانية وهي هنا الناقة التي يستقى عليها من البئر

(٣) في ص ٢٠ (٤) وقع نقص في النسخة الاولى يبتديء من هذا الموضع وينتهي قبل آخر الرسالة التالية بستة أسطر . فأكملناه من النسخة الثانية . وكل ما في هذا الكتاب فهو من النسخة الاولى ما لم نجد في النسخة الثانية زيادة عليها فاننا ننقله عن الثانية ونضعه بين هاتين العلامتين [ ] ليكون القاريء على بينة

(٥) في ص ٢٥ (٦) في ص ١٩ ، وتقدم تفسيره فيها

ويتكفلَ به ثمَّ يتغيّرُ عن أوَّلِ مثاله* ولكنَّه يعلم أنَّ همَّ المنتظرِ للجواب ثقيل، والمَدى فيه وان كان قصيراً طويل* فليتفضل بازالتي عن مَزَلَّة الظُنون ، وإحالتي الى حالةِ السُكون * وإتيانِ مَا يَرْهُو [(١)] له الكَرَم إذا ذُكِر، ويَزهُو به الشرَفُ إذا نُشِر *

رسالة له أخرى الى ابن العتبي

يذكر فيها عودَ الرسول منجِحاً

وهي اثنتان وعشرون قرينة

عادَ — أطال اللهُ بقاءَ الشيخ — فلانٌ وقد علَتْه بَشاشَةُ النَّجاح ، ودَبَّتْ فيه نَشْوَةُ الإِرْتياح* تلوح مَسَرَّةُ اليُسْر من جَبينِه، وتصيحُ بانقِضاءِ العُسْر أسِرَّةُ يمينِه[(٢)]* فأفاضَ في وصفِ ماتلألأَ من غُرَر أفعالِه ، وأبرَّ على كلّ جميلٍ بجماله[(٣)]* وما تَحَمَّلَهُ من أعباءِ المحامِدِ ، وتَجَشَّمَه من عَناءِ المُعاوِد * حتىدَان له الامرُ اللقاح ، وانفتَحَ بابٌ

(١) من رها الطائر اذا نشر جناحيه ، أو من رها الفرس اذا سار سيراً سهلا. وكانت في الاصل « يزهر » وأظنها تحريف ناسخ (٢) في ص ٣٠ . وأسرّة يمينه . خطوط كفه جمع سرار وهي الخطوط في كل شيء (٣) في ص ٢٠

عيِيَ به المفتاح * فدَلَّ هذا السَعيُ النَجيب ، والامر المصيب * على ان تلك الوقْفَةَ كانت ترصدًّا لامكان الفُرْصة ، لا تعلُّقًا بعلائقِ الرُخصة * وذلك الابطاء لم يكن لخُمودِ جَمْرَةِ العناية ، ولكنْ لتَسْكُنَ المنحة عن فَتْرَةِ الولاية * فلمَّا تصدَّتِ البُغْيَةُ سَمْحَةَ العِنان ، حاز المكرُمة بإنجاز الضَمان * وليس هذا الاحسانُ مما يُطاقُ شُكرُه ، أو يُساقُ مَهْرُهُ * فأسوِّل نفسي نهوضا بالجزاء وأمنِّيها وُقوفا بقرب الازاء * لانه تدارك خَطْبًا ضاق عن تَداركهِ المسلك[1] ، وعَجَزَ عن تلافِيه الفَلَك * وراضَ صعْبًا ساءَ خُلقُه ، وأنْهضَ صُبْحًا تَبلَّدَ فَلَقُه * وحَلَّ عقْدًا تَولَّى الدهرُ شدَّه ، وشبَّ ضرامًا أصلَدَ الزمانُ زَنْدَه[2] * ان كان سعي الكِرام ، في الامور العِظام * لاقتناء سَبِيكةَ الحَمْد ، واعتلاءِ عَريكةَ المَجْد[3] * فقدِ استعلى بما أتاهُ على نُجوم السماء ، والْبَسَ المفاخرَ مَحاسِنَ الثناء * وان كان الابداعُ فعلٌ يُعجبُ سَماعه ،

(١) في الاصل « ضاق الى تداركه المسالك » (٢) في ص ٢٠ ، وتقدم تفسيره فيها (٣) في ص ٢٢

وينير شُعاعه [1]] * فقد شاع هذا الفعل في جميع البَشر ، بل صارَ غُرَّةً على جبهة الشمس والقمر [2] * وان كان لذِكْرٍ يخلَّد ، وفخرٍ مؤبَّد * فقد خُلِّدَ ذلك في بَدائِع الاخبار ، وكُتِبَ بسَوادِ الليلِ على بياضِ النهار [3] * لا زال غَناؤهُ مَوْقوفاً على ما تُحَلَّى به المَسامع ، وسعيُه مصروفاً الى ماتُثْنى عليه الأصابعُ [4] *

رسالة أخرى

الى أبي الفضل ابن العَميد

وهي خمس عشرة قرينة

لم يَزَلِ الأُستاذُ منذ تَعارفْنا ، وفي سَبيلِ التصافي تَصَرَّفنا * يَرَى السعيَ في مَصالحي من أكرَم مَساعِيه ، ورِعايةَ العَهْدِ فيه من أهمِّ ما يُراعِيه * ويَبْذُلُ لي نخيلةَ الوُدِّ ومَنخولَه خَيرَ مايَبذُل ، ويَجْتني ثمرة الفؤاد وكلُّ جميلٍ يجنيه يَذْبل [5] * إلاَّ أن ماتجَشَّمه آنفاً زادَ في مواقِع

(١) هنا ينهتي نقص النسخة الاولى الذي أكملناه من النسخة الثانية

(٢و٣) في ص ٢٦ (٤) لعله بمعنى ماتعقد عليه الخناصر أي ما يعتبر ويحتفظ به

(٥) في ص ٢٠

الاعتداد ، واستنفد في الشكر مبالغ الاجتهاد * لأنه قضى حق الكرم بما تحمله من العناء ، ونفى عن الفضل فيما أتاه سمة الاستحياء * ولكن الأمور تابعة للمقادير ، ومفاتيح أغلاقها بيد التيسير * والايام إذا ناءت بجانب اللجاج ، وجاءت بكتائب الهياج * فليس الى دفعها سبيل ، وكل عناء يصرف اليه تعليل * وهذا الامر وان كان قد تمادت به المدة ، وطالت عليه العدة * فانه معتكف مقيم على ضامن كريم * والكريم اذا ضمن لم يخلف ، واذا نهض لفضيلة لم يقف (١) * ومادام هو — أدام الله عزه — للفرصة فيه مرصدا ، ولانجاز ماوآه معتقدا * كان الرجاء كنور في كمام ، والوفاء كنور في ظلام * ولا بد للنور أن يتفتح ، وللنور أن يتوضح (٢) * والله ولي التيسير والتسهيل . وهو حسبنا ونعم الوكيل *

أخرى اليه تعزية

وهي عشرون قرينة

الدهر — أطال الله بقاء الاستاذ — شر كله ،

---

(١) في ص ٢٠ (٢) في ص ٣٠ ، ومعنى وآه : ضمنه . والنور الزهر

مَفصَّلُهُ و مُجْمَلُهُ * مَركَبُ النوائب ، ومَلْعَب العجائب [١] * شأنُه نَكْثُ العُهود ، وتبديلُ البِيْض بالسُّود * ما قصدَ أحداً بخَيْر ، إلا اختتَمه بشرّ * وما عهِدَ في الرعايَةِ عهْداً ، إلاَّ نقْضَ ذلك غداً * ليس على حالٍ من أحواله بمُعْتَمد ، ولا في شيء من أفعاله بمقتصِد * إن أَضحكَ ساعةً أبكى سَنَةً ، وإذا أتى بسَيِّئة جَعلها سُنَّة * ومن أراد منه سوى هذا سِيرَة ، أرادَ من الأَعمى عيناً بَصِيرة * ومَن ابتغى منه الرِعاية ، ابتغَى من الغُول الهداية * ومَن تمَنّى أن يَجْرِي له غيرَ مَجْراه ، فقد تَمَنَّى شيئًا لا يراه * والدنيا دارُ تغرير وخداع : ومُلتَقى ساعةٍ لوَداع * وأهلُها مُتَصَرِّفُون بين وُرودٍ وصَدَر ، وسائرون خَبَراً بعد خَبَر * ولا خِلافَ أن غايةَ كُلِّ مُتحرِّك سُكون ، ونهايةَ كل متكوِّن أن لايكون * فان آخِرَ الأَحياء فَناء * والجَزَع على الاموات عَناء * وإذا كان كذلك ، فالتَّهالُكُ فضلٌ على كلِّ هالك * والاستاذُ أعلمُ بما تأْتي به الايام ، مِن أنْ يُكثَرَ عليه بذِكْره الكلام * فحقيقٌ به أن يُعَزِّيَ نفسَه بسلامة نفسه ،

---

(١) في ص ٣١

ولا يُطيلَ الاسَى على من رَحلَ عن مُعرَّسه (١)* فكلُّ الناس على ميعادٍ من هذا الرحيل، وانما هو تعجيل وتمهيل* جعل اللهُ هذه لمصائبه آخرة ، وتَرَكَ أقدامَها دُونَ ساحته عاثِرَة * وصانَ عن سَماعِ المكارِهِ سَمْعَه ، وعنِ السُّجُوم على الأَعِزَّةِ دَمْعَه (٢)*

رسالة أخرى اليه

[في مدح نثر ابن العميد ونظمه]

ولكنها نادرة في فنها ، كثيرة محاسنها . قد مدح بها كلام ابن العميد وألفاظه ، فلم يغادر كلمة رائعة ، وفقرة فائقة ، ولفظاً عذباً ، ومعنى بديعاً ، الا جمعها فيها ، وصرَّفها في وصف بلاغته وبراعته . وأحسب لو أن افاضل الكتاب البلغاء اجتمعوا على أن يأتوا بعشير ما أتى به من فصيح الالفاظ وبديع المعاني في وصف كتابته لعجزوا عنه ولم يكملوا له . على أن لهم فصولا كثيرة موجودة في ذكر البلاغات والبراعات ، ولكن أين تقع تلك من هذه . وما عسى أن يكتب الكاتب في فن واحد من المعاني — وان كان بليغاً — غير أسطر يسيرة من الكلام ، لان وسعه لا يفي بأكثر من المعهود المتعارف في التصرف . وقد جعل هو هذا الفن فنوناً بعوده كلما انقضى فن الى آخر يزيد عليه حسناً ، ارادةَ الاتمام والمبالغة

(١) المعرّس : المنزل (٢) سجوم الدمع : أن يسيل قليلا أو كثيراً

الرسالة هذه

وهي سبع عشرة قرينة

عُرِضَ عليَّ — أطال اللهُ بقاءَ الاستاذ — من عقود سِحْره ، ومَحْسُود نثره * فصلٌ تُضِيءُ النواظِرُ برُؤْيته ، وتَخْطِرُ الخَواطِرُ لروايته * ويُفِيدُ البُكْمَ بيانا ، ويُعِيد الشِّيبَ شُبَّانا * ويُهْدِي إلى القلوب رَوْحَ الوصال ، ويهُبُّ على النفوس هُبُوبَ الشَّمال * ولو كنتُ عَرَفْتُ تفاضُلَ الكلام ، ومَيَّزْتُ بين المَنْسِم والسَّنام * لما قابلْتُ بصَفِيري زَئِيرَه ، وما ساجَلْتُ ببَعيثي جَرِيرَه [1] * فاني منذ هَجَمْتُ على هذه المُعْجزات ، مُتذمِّمٌ إلى القلم والدَّواة * لازم — لما أتيْتُه — حِجابَ الخَجَل ، وعازمٌ على غسْلِه بماء التنصل [2] * ونذرْتُ أن أُعفِيَه من تكاتب ، يحارُ في ظلامِه كلُّ كاتِب * وأصُونَ عن ذلك الهَذَيان سمْعَه ، ولا أحاولَ مصْعَدًا لا أستطِيعُه * فمَنْ مَرَّ على أرجاءِ بحْره الهَيَّاج ، ونظر في لألاءِ بدْره الوهَّاج [3] * خليقٌ بأن يَكْبُوَ قلمُه بأنامِله ، وينبُوَ طبْعُه عن رسائله * لأنَّه بيان قصُرَ

(١) في ص ٢٨ (٢) في ص ٢٣ (٣) في ص ١٩

عن نيلهِ لسانُ البلاغة ، ولم يأتِ بمثله فُرسان هذه اللغة [1] * وكتابةٌ غادرت أترابها كمنثور الهباء ، وسحبت ذيلَ الفخار على هامة السماء * ومن رَامَ أن يفريَ فيها كما يفري ، ويسري بنجومها كما يسري [2] * رام أن يشارك الشمسَ في الشُّعاع ، والفلك في الارتفاع * وهذا غرضٌ لا يُصاب ، ودعاءٌ لا يستجاب *

أخرى اليه

[في طلب اقالة نادم]

وهي أربع عشرة قرينة

العفوُ عن المُجْرِم من مَواجِب الكَرَم ، وقَبول المَعْذِرة من محاسنِ الشِّيم * لا سيَّما إذا كان فيما بَدَرَ منه ساهيا ، ولما كَتَبَ عليه سُوءُ الاتِّفاق ماحيا [3] * وأَلْفيْتُ فلانًا بحالٍ لا يقاسُ إليها حال ، وصُورَةٍ لا يُوازي بها مثال * فقد زالَ قَرارُه ، وأظلَمَ نَهارُه * وأثَّرَتْ فيه خَجْلَةُ العِثار ، ونَهَكَتْهُ ذِلَّةُ الأعتذار [4] * يَنْكُت

(١) في ص ٢٨ (٢) في ص ٢١ (٣) في ص ٢٠ (٤) في ص ٢١

الارضَ ببَنان التَّحيُّر ، ويُغيِّمُ السماءَ بأنفاسِ التَّحسُّر * فحملَني ما تبيَّنتُ فيه من الذُّهول ، ودبَّ في جسمِه من الذُّبول * على تقويةِ قلبِه ، وتسكين ما به * إذ كان كالغريق يطلُبُ معانِقًا ، والأسير ينْدُبُ مطابِقا * فضمِنْتُ له عن الأستاذ عطفًا يُزيلُ زلازلَ نفسِه ، ويُرخي خُناق نفَسِه * واثقًا بفضله الذي يَحنُّ الى المكرُمات ، ويأبى أن يفُضَّ ختامَ الحُرُمات * وهو — أدامَ اللهُ عزَّه — وليُّ التفضُّل بتحقيق ظنِّه وظني ، وصرْف الخجَل في خيْبَته عني * فقد توسَّل بخطابي إليه ، وأمَّل كشف ما دهَمَهُ بشفاعتي لدَيه * وبزَنْد الشَّفيع تُورَى نارُ النَّجاح ، ومن كفِّ المُفيض ينْتَظَرُ فوْزُ القِداح

رسالة أخرى

الى الوزير ابنِ العُتْبي [في الشفاعة]

وهي احدى عشرة قرينة

الوَسائلُ — أطال اللهُ بقاءَ الشَّيْخ — أقدامُ ذوي

الحاجات ، والشَّفاعاتُ مفاتيحُ الطَّلِبات * والأيَّامُ تُحوجُ النَّاسَ الى الناس ، وتُغيِّرُ عليهم معهودَ اللباس * ومن نابتْه نَوْبةُ التغيُّر (١) * وأصابتْه صدْمةُ المقادير * ووقع في شباكِ الشَّرّ ، ودُفِعَ الى حِكاكِ الدَّهْر * قصدَ إلى مَنْ يأمَنُ الحوادثَ في حِرْزه ، ويردُّ كيدَ الزَّمان بعزِّه * وهذا الحُرُّ - أدامَ اللهُ عزَّ الشيخ - منهم قد خانَه الدَّهْرُ فأخْنَى على حاله ، وعانه بعَيْنه فهَوَى نجْمُ إقباله (٢) * فالتجأ الى الشيخ راجياً ربيع كَرَمه ، ومعتمداً مَنِيع حرمه * وهو - أدامَ اللهُ عزَّه - جديرٌ باعادَةِ الماءِ في ذا بلِ عُوده ، وإعاذَةِ زَنْده من وصمَةِ صُلُوده * فمن أقعدَتْه نكايةُ الأيَّام ، أقامَتْه إغاثةُ الكرام * ومن ألْبَسَه الليلُ ثوْبَ ظَلْمائه ، نَزَعه النهارُ عنه بضيائه (٣) * ولن تُهَزَّ أُكْرُومَةُ الشيخ بأبْلَغَ من أرْيَحِيَّتِه ، فلْيجْرِ فيه متفضِّلاً على سجيَّته * ان شاءَ اللهُ تعالى

---

(١) كذا في النسختين ومقتضى القرينة أن يكون « التغيير »

(٢) في ص ٢٩ (٣) في ص ٢١

أخرى [له] اليه

وهي خمس عشرة قرينة

زينَةُ الأحرار محاسنُ الأفعال ، وحلْيـة الكرام تحقيق الآمال * وأحْسنُ الصَّنائع ما أصيب فيه المصنَع ، وأحْمَدُ العَوارِف مازَكا به المَزْرَع * وهو ما أوْلاهُ الشيخُ أبا فلان فانَّه جَمَعَ المَحاسِنَ كلَّها ، وجرَّتْ لها المفاخِرُ ذَيلَها * وصارَشُكْرُه في انتشار جَماله ، وانفِساح مَجَاله ، شُكْرًا مُباينًا لاشْكاله * تتلألأُ غُرَرُ الثناء في أثنائه ، ويتضاءَلُ ضَوْءُ النيِّرَينِ عندَ ضِيائه * لم يُسْمَع في رَوْنَقِه كلام ، ولم يُشْكَر بأحسَنَ منه إنعام * قد رَغَّبَ الناسَ في اقتِناء المَكرُمات ، وأخجَلَ الدهرَ من السعي في السيِّئات * هذا في وصف ما شاع من شُكرِه ، وغلوُّه في إذاعة ذكره *

وأمّا ارْتياحي لما حازَهُ الشيخُ — أدامَ اللهُ عزَّه — من هذه الأُكْرُومة ، وحواه من جَمال هذه الأُحدُوثة * فهو في تباعُدِ مَداه ، وتنائي منتهاه * بحيثُ يَنفَدُ فيه مَدَدُ

الأوصاف ، ويكِلُّ عن كُنْهِهِ لسانُ الإسراف * لا لأَنَّ المشكورَ من فعله ، بَدِيعٌ من فضله * والمأثورَ من كرمه ، دَخِيلٌ في شِيَمِهِ * ولكنَّهُ لاشتهارِ فضائلِهِ به في الانام ، ونَفَاسَةِ موقِعِه من نفوس الكِرَام * فالذكرُ الجميلُ نسبٌ شريف ، ومَنْصِبٌ مُنِيف * أدام الله لاكتسابه توفيقَه ، وسَهَّل إلى طِلابِه طريقَه *

أخرى [له] اليه

وهي ست قرائن

الشيخُ يقومُ بهذا المطلوبِ قِيامَ ذوي الخَيرِ والخِيرِ ، ويسعَى فيه سعيَ الكَبِيرِ في الكبيرِ[1] * ويَستوْفي على نفسِه كَرَمَهَا ، ويَستدعي من مكارمِه يومَهَا * حتى يثمِرَ ما أزهرَ من القول ، ويُمطِرَ ما أنشأَ من سَحابِ الفضل * فاقتناءُ المناقبِ ، باحتِمالِ المتاعِبِ * وإحرازُ الذِكرِ الجميل ، بالسعي في الخَطْبِ الجليل * أعانه اللهُ على نيلِهِ ، وسَهَّل عليه سُلُوكَ سُبُلِهِ *

(١) الخير « بفتح الخاء » خلاف الشر . والخير « بكسر الخاء » الكرم والجود

أخرى [له] اليه

وهي أربع قرائن

الشيخُ يعتَنِقُ هذا الامرَ اعتِناقَ مُجْتَلِبِ مَوَاجِبَ الشُكْر ، مجتَنِب مَذَاهِبَ العُذْر (١)* واثقاً باعتِقابِ المَسرَّةِ عما يأْتيه ، آمِنًا وقوعَ الخِلافِ فيه * فاني لا أُعرِّضه للمَلامَة ، ولا أُقرِّعه سِنَّ النّدَامَة * بل أجْنيه جني الوَفاء ، وأقيه لَوَاحِقَ الاستِحْياء *

أخرى اليه [تعزية]

وهي خمس عشرة قرينة

الدهرُ مرآةُ النوائب ، ومَجْناةُ العجائب * يأْتي بما لا يُدْرَى ، ويرمي عن وَتَرٍ لا يُري * والدنيا مُغيِّرَة الحالات ، ومُبَدِّلة الشملِ بالشّتّات * تُنادي كلَّ يوم بتعجيل الانزعاج ، والانتشار في مَفارِش العَجاج * ولٰكِنَّ الانسان لا يُعجبُه نَبأُ الجلاء ، ولا يسُرُّه أذانُ الساء * وإنْ عَدَّ من أيام عمرِه أتمَّ الأعداد ، وبلَّغها الى الألوف من الآحاد * فهو

(١) في ص ٢٣

في سرورِ سُكرِه ، وفي خُمار خَمْرِه * كأنه قد وَجدَ قَبالةَ البقاء ، بخطوط مشايخ السماء [1] * فيَخال ان بينه وبين الرّحيل سدّا ، ولا يدري أنه نائمٌ في دار المُقام غدا * والشيخُ أعلمُ بمواقِع الأقدار ، وقوارِع الليل والنهار * من أن يُنبَّه عن سنَة ، ويُدَلَّ على سُنّة * فمن أراد أن يزيدَهُ تبصيراً ، ويُخْبِرَه بما ليس به خبيرا * كان كمن أهدَى إلى الارض هُدُوّا ، وإلى السماء سُمُوّا * لـكنَّ التَّسليةَ رسم مستعمَل ، ومِثالٌ بينَ الناس ممتثَل * جعل الله هـذه لمصائبِه خاتمة ، ولصَوارِم الدهر والايام صارِمة *

رسالة أخرى

الى أبي محمد عبدِ الله بن اسماعيل بن مِيكال تعزيةً

وهي ست عشرة قرينة

الدنيا شجرةٌ ثمرتُها النوائب ، وبَيضةٌ مُضمَّنُها العَجائب * أولُها رجاءٌ كالسّراب ، وآخرها رداءٌ من

(١) القبالة « بفتح القاف » صك يكتب فيه تعاقد عامل وصاحب عمل على قبول الاول التزام العمل من الثاني . يقال تقبلت العمل من صاحبه اذا التزمته بعقد . والقبالة اسم المكتوب من ذلك

تُراب * والايامُ والليالي مطيّات البَلايا ، وأمّهاتُ المنايا * بتجدُّدِها تبلَى الاجسام وبتردُّدِها يرْدَى الأنام * والدهر داءٌ ليس له دواء ، لاحَياء لدَيْه ولا وفاء * قاصِم الأَصلاب ، وقاسِمُ الأَسْلاب (١) * ما حَمَى أحداً إلاّ خذَلَه ، وما ربَّى ولَدَا إلاّ [أكلَهُ أو] قتلَه * شيمتَه أن ينقُلَ من محبُوب الفِناء ، إلى مَرْهُوب الفَناء * ويبدِّلَ لذَّةَ الحياة ، بغصَّةِ الوفاة * والناسُ في أحلام غفْلَة ، وفي ظلام جَهالة * يظنون أن كونَهم في الدنيا سُكون ، ورَحيلَهم عنها ليس سيكون (٢) * ولا يدرون أنهم أبداً راحلون ، وعلى مَناكِب الليل والنهار سائرون * وأن ذلك أعمارٌ لهم تمضي ، وأنفاس تنقضي * ومن عرَفَ هذه الاحوالَ معرِفةَ الشيخ لَبِسَ الدهرَ على إخلاقِه ، ولم يجْزَع من مُرّ مذاقِه * وهان عليه ألمُ المصائب ، وخَفَّ لديْه ما ألمّ من النوائب * واكتفَى من مُخاطبَة مُعزّيه بالشيء اليسير ، واستغنَى بفضلِ علمهِ عن التذكير والتبصير * .

---

(١) في ص ٢١ و٢٥ (٢) كذا في النسخة الثانية ، وفي الاولى «ماسيكون»

أخرى له

الى الشيخ الامين عليّ بن الفضل

وهي ثلاث عشرة قرينة

الدهرُ مذمومٌ بكلِّ لسان ، ومسيءٌ الى كلِّ انسان* شأنه تبتيرُ الأعمار ، وتبديل الإهلالِ بالسِّرار* إن حرَّك للخير حاركة ، جعلَ الشرَّ فذالكه* واختتمَ النهار بالليل ، وبدّل الوَليمَةَ بالوَيل* والدنيا مخلِقة الجديد ، ومُلحِقة القريب بالبَعيد* معرَّسُ السَّوابل(١)* ومُتنَفَّسُ الرَّواحِل* يحِلُّ هذا ويرحَلُ ذاك ، ولا يدري أحدٌ ما الحالُ هُنالك* والمرءُ مُخيَّلٌ في خَلدِه ، امتِدادُ أمَدِه ، وغافلٌ ببياضِ يومه عن سوادِ غدِه* ولا يعلمُ أنه قد نقصَ من عُمْرِه يومٌ إذا أسفَرَ عن الصباح ليل ، ومن سِنِيِّه شهرٌ كلَّما عاوَدَه مُستَهلّ* وأن الانسانَ يسيرُ دائما ، على الاشهب ساهراً وعلى الادهم نائما(٢)* ولولا أن في التعزية تسكيناً للقلب ، وفي التذكير تهْويناً للخَطْب* لكان الشيخُ معَ معرفتِه بتصاريفِ الامور ،

(١) في النسخة الثانية « مغرس السوائل » (٢) في ص ٣١

والاعمارِ المعدودةِ كأيام الشهور * جديراً باعفائه من إعلام المعلوم، وإفهامِ المفهوم *

رسالة أخرى له طويلة

الى خاله الأصْبَهْبَذِ، في العَتْب والاستمالة

وكان سبب انشائه هذه الرسالة أن الاصبهبذ سأله حاجة تعذر اسعافه بها، فتولدت منه موجدة، ثم صارت نبوة. فتصرف فيها تصرف مستعطف مستميل، ثم ارتقى الكلام الى احتجاج عليه، وتقرر عنده أن عزه – وان كان قديماً – فلن يستطيل ويتأطد الا ببابه، وان شرفه لا يثبت الا باتصال سببه به

فجاءت الرسالة فردة بديعة يتيمة في فنها، بل معجزة على الحقيقة. لما تشتمل عليه من كثرة البدائع، وفقر الكلام، وغرائب الاستعارات والتشبيهات، واشياء معوزة ممتنعة، أوردها تمثيلا وتهويلا، بألفاظ رائعة فصيحة، وأسجاع غريبة، يتعجب منها السامعون، ويتحير فيها المتأملون، ويعجز عن مثلها الخلق قاطبة. وأعجب منه اتيانه – عند مباديء الفصول – بكلمات مكررة لصلات الكلام، مختلفة المعاني على مقتضى كل فصل، وهي « أمن وأمن » و« أم وأم » و « ماهذا وماهذا » و « أين كذا واين كذا » و « كيف وكيف » و « لم ولم »؛ وليس يعلم أن أحداً من مبرّزي الكتاب وأفاضل البلغاء تطرق

الى هـذه الطريقة ، واهتدى الى هـذه المعاني السحرية ، منذ عُرفت صناعة الرسائل

والرسالة هذه

وهي أربع وخمسون قرينة

الانسانُ خُلِقَ أَلُوفا ، وطُبِعَ عَطوفا * فما للاصْبَهْبَذ سيدي لا يُخنى عُودُه ، ولا يُرْجى عَوْدُه * ولا يُخالُ لِفَيْئَتِهِ مَخيلَة ، ولا يُحالُ تنكُّرُه بحيلة (١) * أمِن صَخر تَدْمُرَ قلبه فليس يُلَيِّنُـه العِتاب ، أم من الحديد جانِبه فلا يُمِيلُه الاعْتاب * أم من صَفاقَةِ الدهر مِجَنُّ نُبُوِّه ، فقد نَبا عنه غَرْبُ كلِّ حِجاج ، أم من قَساوَتِه مِزاج إبائه ، فقد أبى على كلِّ علاج * ماهذا الاختيارُ الذي يَعُدُّ الوَهْمَ فَهما ، وهـذا التمييزُ الذي يحسِبُ الخيرَ شرّا * وما هذا الرأيُ الذي يُزَيِّن له قُبْحَ العُقوق ، ويَمقِتُ اليه رعايةَ الحقوق * وماهذا الاعراضُ الذي صار ضَربةَ لازب ، والنِّسيانُ الذي أنساه كلَّ واجب * أين الطَّبعُ الذي هو للصدود صَدُود ،

(١) الفيئة : الرجوع . والمخيلة هنا : استعارة من السحابة التي تحسبها ماطرة ، ويحال : يصرف . يعني ان الاصبهبذ لا يكاد يرجى رجوعه الى الصواب

وللتآلف ألوفٌ وَدُود (١) * وأينَ الخُلُقُ الذي هو في وَجهِ الدنيا البَشاشةُ والبِشْر ، وفي مَبْسِمِها الثَّنايا الغُرّ * وأين الحياء الذي يُجلَّى به الكرَم ، وتُحلَّى بمحاسنه الشِيَم * كيف يُزْهَدُ في مَن مَلَكَ عِنانَ الدهر فهو طَوْعُ قِيادِه ، وتَبَعُ مُراده * ينظرُ أمرَه لِيمْتَثِل ، ويرقُبُ نَهيَه فيعتَزِل * وكيف يُهْجَرُ مَن تضاءلت الارض تحتَ قَدَمه ، وصارت في الانقيادِ له كخدَمه * اذا رأت منه هشاشةً أعْشَبَتْ ، وان أحَسَّتْ منه بجَفْوَةٍ أجْدَبَتْ * وكيف يُستغنَى عمَّن خيلُه العزَماتُ والاوهام ، وأنصارُه الليالي والأيَّام * فمن هَرب منه أدركَه بمكائدها ، ومَن طلَبَه وجدَه في مَراصِدها * وكيف يُعْرَضُ عمَّن تُعْرِضُ رَفاهةُ العَيش بإعْراضه ، وتنقَبِضُ الارزاقُ بانقباضه * وأضاءَ نجمُ الاقبال إذا أقبل ، وأهلَّ هِلالُ الجدِّ إذا تهلَّل (٢) * وكيف يُزْهى على مَن تحقُرُ في عينه الدنيا ، ويَرى تحتَه السماءَ العليا * قد ركِبَ عُنُقَ الفلَك ، واستوَى على ذاتِ

(١) في ص ٢٤ (٢) في ص ٢٠ — ٢١ .

الحُبُك (١) * فتبرَّجَتْ له البُروج * وتكَوْكبتْ لعبادته الكواكب * واستجارَتْ بعزَّته المَجَرَّة (٢) * وأثْرتْ بمآثِره أوْضاحُ الثُرَيّا * بل كيف يُهَوَّنُ من لوشاءَ عقَدَ الهواء ، وجسَّمَ الهَباء ، وفصَّلَ تراكيبَ السماء ، وألَّفَ بين النار والماء * وأكْمَدَ ضياءَ الشمس والقمر ، وكفاهُما عَناءَ السّيْر والسَّفَر * وسَدَّ مَناخِرَ الرِّياح الزَّعازِع ، وطَبَّقَ أجفانَ البرُوق اللوامع * وقَطَعَ ألسنَةَ الرُّعود بسَيْفِ الوَعيد ، ونظمَ صَوْبَ الغَمام نظْمَ الفَريد * ورَفعَ عن الارض سَطْوَةَ الزَّلازل ، وقَضَى بما يَراهُ على القضاء النازل (٣) * وعرَضَ الشيطانَ بعرْض الانسان ، وكحَلَ الحور العين بصُوَر الغيلان (٤) * وأنْبَتَ العُشْبَ على البحار ، وألْبَسَ الليلَ ضوءَ النهار * ولِمَ لا يعلَمُ أنَّ مُهاجَرَةَ من هٰذه قُدرتُه ضَلال ، ومبايَنَةَ مَن هٰذه صِفتُه خَبال * وإنَّ مَن له هٰذه المعجزات ، يُشْتَرَى رضاه بالنَّفْس والحياة * ومن أتى بهٰذه الآيات ، يُبْتَغَى هَواهُ بالصَّوْم والصَّلاة *

(١) الحبك : طرائق النجوم . وذات الحبك : السماء (٢) في القاموس « المجرّة : باب السماء أو شرجها » (٣) في ص ٢٧ (٤) بالنسخة الاولى « وكحل العيون »

وَمَن لم يتعلَّقْ منه بحبل ، كان بَهيماً لا شِيَةَ له ، ومَن لم يأوِ منه الى ظِلّ ، ظلَّ صَرِيمًا لا عِصْمَةَ له * ولِمَ لا يستردُّ عازِبَ الرَّأي فيعلمَ أنَّه ما لم يعاوِدِ الصِلةَ مأفُون ، ويستعيدُ غائبَ الفِكر فيفهَمَ أنه ما دام على الفرْقة مَغْبُون * أظنُّه يُقدِّرُ الاستِغْناءَ عني هو الغِنىَ والغَناء ، ولا يدري أن الالْتِواءَ عليّ هو البلى والبَلاء * ويَخالُ أنَّه مُكتفٍ بجاهه وعِرْضه ، ومتعَزِّزٌ بسمائه وأرضه * ولا يَشعُرُ أنِّي كلٌّ لبعضِه وطُولٌ في عَرْضِه(١) * وأن قُوَّةَ الجَناح بالقوادِم والخَوافي ، وعَمَلَ الرِّماح بالأسِنّة والعوالي * ليس إلحاحي على سيدي مُستعِيداً وِصالَه ، ومُستصلِحاً خِصالَه * وعَدِّي عليه هذه العجائب ، ووثوبي لاستمالته من جانب الى جانب * لأني [كنتُ] ممن يرغَبُ في راغِبٍ عن وُصلَته ، أو يَنْزِع الى نازِعٍ من خُلَّتِه * أو يؤثِّلُ حالاً عند من يَنْحَتُ أثْلَته ، أو يُقبِلُ بوجهه على من لا يجعَلُهُ قِبلَتَه * فاني لو علِمْتُ أنَّ الارض لا تَسفُّ تُرابَ قَدَمي لجنَّبْتُها جَنْبي ، وأن السماءَ لا تتُوقُ الى تقبيل هامتي لقَلَبْتُ عن

(١) في ص ٢٠

ذِكرها قلبي * لكني أكرهُ أن يَعْرَى نحرُه من قلائد الحمد ، ويَجتنِبَ جبينَه إكليلُ المجد * ويظَلَّ وجهُ الوَفاء بقبْضهِ على يده مُسْوَدّا ، ورُكنُ الاخاءِ لِفتّه في عَضُده منْهدّا * ولا يُعْجِبُني أن يكسُوَ ضوءَ مكارمه كَلَفَ الخُمول ، ويأْذَنَ لطوالِع معاليه بالأفول [1] * فان فضَّلَ سيدي الخمودَ على الوُقود ، والعدَمَ على الوُجود * ونزَلَ من شاهِقٍ الى خفْض ، ومن حالِقٍ الى أرض * وهاجَرَ [2] بهَجْره ، وأصرَّ على صُرمه * ومالَ الى الملال ، ولم يَصِلْ نارَ الوصال [3] * حلَّتْ عنه مَعْقودَ خِنصَري ، وشغَلْتُ عن الشُّغْلِ به خاطِري * بل مَحَوْتُ ذِكرَه عن صفْحَة فؤادي ، واعتَدَدْتُ وُدَّه فيما سالَ به الوادي *

فَفي الناسِ إن رَثّتْ حِبالُكِ واصِلٌ

وفي الأَرْض عن دار القِلى مُتَحَوَّلُ

---

(١) في ص ٢٣ (٢) في النسخة الثانية « وجاهر » (٣) في ص ٢١ و ٢٥

أخرى له

الى أبي عبد الله محمد بنِ علي بن وَنْدَوَيْهِ الكاتب

وهي ست وثلاثون قرينة

شَكَوْتَ — أطالَ اللهُ بقاكَ — الدهرَ وأحكامَه ، وذَمَمْتَ صُرُوفَه وأيّامَه * فشَكَوْتَ مَن لا يُشكِي أبدا ، وذممتَ مَن لا يُرضي أحدا * فما زالَ هذا الدهرُ يُعْجِب ، فيما بين يَهَبُ [(١)] ويَنْهَب * شِيمتُه رَفْعُ الخاملِ الوَضِيع ، ووَضْعُ الفاضلِ الرَّفيع [(٢)] * اذا أساءَ أصرَّ على إساءَتِه ، وإذا أحسَنَ نَدِمَ عليه مِن ساعتِه * سِيرَتُه إيحاش البَشَر ، وهذا من أسْوَإ السِيَر * يأخُذ بِخُنَّق الخَلْق ، ثم يُغِذُّ بهم بسُوء الخُلُق * يُصعِدُ أحَدَهم في السُّمُوِّ الى السِّماك ، ويُبلِغه مَحَلاًّ تحسُدُه الكواكبُ في الافلاك * ثم يبدِّلُ ضِياءَه بالظَّلْماء ، ويُنْزِلُه الى الأرض من السماء * ظاهِرُه مُعْجِبٌ لناظِره ، وباطنُه مكذِّب لظاهره * لا يَسْمَعُ الشَّكْوى ، ويشمَتُ بالبَلْوَى * إذا حالف ، فاحْسُبْه قد خالَفَ ، وإذا أعار ، فاحْسَبْه قد أغار [(٣)] * فما بين هذا وبين

(١) في النسخة الثانية « بما يهب » (٢) في ص ٢٢ (٣) في ٢٢ و٢٦

ذالك إلاّ كنَقْر طائر بِمنْقار ، وانتِشار شَرَرٍ من نار * ليس إيرادي عليكَ ماأوْرَدْتُه من لَئيم أفعالِه ، وذَميم خِصالِه * ظَنًّا مني بسوء مَعْرِفتكَ بطِباعه ، وأنواعِ خداعه * فانكَ أخِيذُ أوْهاقِه ، ووَقيذُ أخلاقه[(١)] * وأسيرُ صَوْلَته ، وكسير صَدْمته * أو لِأَرْضى لكَ به جَوابا ، وترضى مني به ثوابا * فاني إن أجزْتُه[(٢)] فقد صَوَّبْتُ صُنْعَه ، ووَسَّعْتُ ذَرْعَه * وخالَتُ خيلَه ، وسالمتُ سَيلَه[(٣)] * ولكن لتعلمَ أنَّ لكَ في حَمْل تحامُلِه أمثالا[(٤)] ، وفي مقاساة شَرِّه أشكالا * ولا تَظُنَّ أنكَ مقصودٌ بمكائده وحْدَك ، لتمريغه بغُبار المذَلَّة خَدَّك * فتتأسَّى بمن هو معك في قَرَن ، من المنكوبين بحَكاك المحن * هذا ولكل شيء غايةٌ ومنتهى ، وانقضاءٌ وإن بَعُدَ المَدَى * وأرجو أنَّ أيام مكارهك قد انقضت ، والسودَ منها قد ابيضَّتْ * وأفلاكَ الحِرمانِ عن حركاتها وقفتْ ، ورياحَ النَّوائب عن سَكْرها

(١) في النسخة الثانية « اخيذ ارهاقه » . والاوهاق (جمع وهق) الحبل يرمي في انشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان . والوقذ : شدة الضرب . والوقيذ : الشديد المرض : المشرف على الموت (٢) في النسخة الثانية « ان أخرته » (٣) في ص ٢١ . وخالت خيله : صاحبتها وائتلفتها (٤) في النسخة الثانية « في حمل تخائله »

سَكَرَت [1] * فكلُّ عالٍ له انحدار ، وكلُّ ليلٍ له نهار *
ومِصداقُ ذلك أن أكثرَ فِكري ، مع ما تعلمهُ مِن شغْل خاطِري * مَوْقوفٌ على إزالة ما أزَلَّهُ الدّهر اليك [2] ، وعلى إحالَة ما أحلَّهُ عليك * ومصروفٌ الى تصديق معنى البيت الذي جعلتَهُ لحاجتك رسيلا [3] ، ولوسائلك مَسلكاً وسبيلا *

مُنىً ان تكنْ حقًّا تكنْ أحسنَ المُنىٰ
وإلا فقد عِشْنا بها زَمَنًا رَغْدا

وأما ما استدعيتَه من مُطالعتِكَ بجملة الخبر ، مِن الفَرَج المنتظَر [4] * فاعلم أنَّ القمرَ بعدُ مستَتِرٌ في السِّرار ، ومحجوبُ الوجهِ عن ضَوْءِ النهار * والامرُ كما عاينتَه في العمياء ، ولم ينكشِفِ السحابُ عن السماء * والقلبُ على حالتِه حائرٌ قلِق ، ومفتاحُ الغَلَق بحبلِ الثُّريّا مُعلَّق * هذه صُورةُ الامر ، وجُملةُ الخبر * ثمَّ اللهُ على ما يشاءُ قدير ، وتسهيل كل عسير عليه يسير *

---

(١) السكر : الملء والسدّ (٢) ازله : ازلقه . وفي النسخة الثانية « أزّله » من الازْل وهو الضيق والشدّة (٣) الرسيل : الواسع والفحل والمراسل في نضال وغيره (٤) أظنه يعني المساعي التي كان يبذ لها قابوس لاسترداد ملكه . فان صح ذلك تكن هذه الرساله مما كتبه بين سنة ٣٧١ و٣٨٨

رسالة أخرى

الى [ابن العتبي] وزير والي خراسان

وكان أهدى اليه هدية ، فاستمهل في قبولها الى أن يستأذن سلطانه . فلما قرأ الرسالة استأذن فيه فقبلها ، واعتذر من واقع المهلة

وهي احدى عشرة قرينة

قد أَخْجَلَ الشيخ انبساطي اليه ، بما خالفَ المَخيلةَ فيه ، [والاعتماد عليه] * من ردِّه بسعيٍ خائب ، وظنّ كاذب * حتى لفَّ رأسه بقناع الحَياء ، وغطّى وجهَهُ بلفاع الاستخفاء [1] * واقتحمَ ظلمةَ الوَحدة [2] ، والتزمَ وَحْشَةَ العِدَة * ولو أبْصَرَه الشيخُ في متغيّر صورته ، ومُغْبرّ غُرّته * لندِمَ على ما أتاه ، ووجِمَ لما جَناه * فهل له في إحالة حَيائه [3] ، وردِّه الى رَوْنقِه ومائه * فقد أعدْتُه [دافقاً في صدره] ، دافعاً في ظهره ، ضارباً على مؤخّره * ضامناً له عن الشيخ أحمَدَ عَوْد ، وممنّياً منه أحسنَ عهد * إن اهتزّ لذلك جَعَلَ القبولَ قِرَاه * وتكرّم بإكرام مَثْواه * وأزال

---

(١) في النسخة الثانية « الاستحياء » . (٢) في النسخة الاولى « الوجدة »

(٣) في النسخة الثانية « حبائه واحيائه »

عنه خَجَلَ الكَساد ، وأذاقه لذَّةَ نيل المراد (١) *

أخرى له

الى أبي الفتح ذي الكفايتين تعزيةً

وهي سبع قرائن

حَشْوُ هذا الدهر الخَؤُون أحزانٌ وهُموم ، وصَفْوُه — من غير كدر — معدوم * والاستاذُ يتأمَّلُ أفعالَه وأعراقَه (٢) ، ويستشِفُّ أحوالَه وأخلاقَه * فان وَجَدَ أحداً سَلِمَ من فَقْد ، وعَرِيَ من وَجْد * فقد لَقِيَ خِلافَ المعهود ، وحَقَّ له فَرْطُ الأَسى على المفقود * وإن علِمَ أن الخَلْقَ فيه شَرَع ، وأن الباقي للماضي تَبَع * قدَّم من السَّلْوَة والصبر ، ما لا بد من المَصِير إليه آخِرَ الأمر * ليَحصُلَ لهُ الأجر والثواب ، يومَ يُعرَضُ الحِساب ، ويُرفعُ الحجاب *

انقضت الرسائل

التي كاتبَ بها غيرَ ابنِ عبّاد

ويتلوها ما كاتبه به

وأجوبته عنه

---

(١) في ص ٢٥ (٢) في النسخة الاولى « صروفه وأحكامه »

رسالة [أخرى له

كتبها الى الصاحب كافي الكفاة اسماعيل بن عباد]

وهي عشر قرائن

الشُّكرُ ذكرُ المحسنِ باحسانه ، والخُروجُ من حَقّه باذاعتِهِ وإعلانه * هذا اذا لم يكنْ ما أتاه مُتبرِّجَ الأوضاح ، وما سَعى فيه مُتَبَلِّجَ الصَّباح * وسَعيُ الصاحبِ مُستَغنٍ عن ذلك لتفتُّح أنوارِه ، وإشراقَ نهاره * فقد مَلأَ العُيونَ عِيانُه ، وصار طِلاعَ الارض عُنْوَانُه * وأصبحَ في مَواسم الذِّكر أذانا ، وعلى مَعالم الشُّكرِ لِسانا * فأمّا النُّهوضُ بمكافأةِ هذا الفِعلِ فعَناءٌ لا يُغْني ، ورَجاءٌ لا يُجْدِي * وكيف تُرْجى مُجازاةُ فِعلٍ يُسَوِّدُ وَجهَ الدهرِ سَماعُه ، ويُعْشِي ناظِرَ البَدْرِ شُعاعُه * وتَزْهِرُ بمحاسِنِه غُرَّةُ الغَبْراء ، وتَحسُدُه الكواكبُ في السماء * ولكنَّه إن كان عَدِمَ عنه شُكراً يشاكِلُه ، وثوابًا يُماثِلُه * فقد حَصَلَ على ذِكْرٍ شريف يُشَوِّقُ الكِرامَ الى مِثلِه ، ويُعْجِزُ الانامَ عن نَيلِه *

[جواب الصاحب اليه]

وَصلَ ما أهَّلَني له الامير مولايَ — ومن أنا عبده — من عالي لفظِه، وسامي خَطِّه * ولو أنّ كتاباً كَفَّرَ عنده البَدْوُ والحَضَر، وتعفَّر له الشمسُ والقمر* لكان ما أمْلَتْهُ عُلْياه، وتوَلَّتْهُ يُمناه * لاجَرَمَ أنّي جَعلتُ يومَ وُرودِه مَوْسِمَ عِزٍّ أُلَبِّي لِداعي فضْلِهِ، وأُطَوِّفُ بأبْياتِ مَجْدِه * وأجعلُ شعائِرَه التي أعَظِّمُها، ومَناسِكَه التي ألْتَزِمُها * التَحَدُّثَ بما آتى اللهُ الاميرَ مَوْلايَ من مكارِمَ عَطَسَتْ بأنْفٍ شامِخ، وتَدَلَّتْ على النجم من حالق * فأمّا وَلائي للامير فان وَصفتُه، فقد عَسَفْتُه، وما أنْصَفْتُه * اذ كانت ودائعُ النفوس ونَخائل الصُّدور لا تتجلّى لألسِنة الكلام، ولا لِأَسنَّة الاقلام* ولكني منذ حَلَلْتُ تمائِمي، وعَقدتُ عمائِمي* لم أُمَلِّكْ زِمامَ طاعَتي، بعدَ الأمراءِ السادةِ أولياءِ نعمتي* أحداً غيرَ الاميرِ مولايَ * فليعتبرْ آمراً وناهيا، وليَختبرْ عائداً كما اختَبَرَ بادِيا* يجِدْني له أطوَعَ منه للكَرم، وأسرَعَ من راحتِه الى بذلِ النِّعَم * إذِ المعالي

تعِدُني في الامير [مولاي] بأكثرَ مما ضَحِكَتْ عنه ثغورُ سُلطانه ، ومهّدَتْ أيدِي البَسطَة من مكانِه * وما كان فألي ليُخْطِيء ، ولا تقديري ليبطيء *

فأمّا المهمُّ الذي توكّلَتِ العِنايةُ باعتمادِي لإلقائه ، وجَمْعِ السفَرَة (١) الى المشورَة في إمضائه * فقد تأتَّيْتُ له من وَجهِه ، واعتمَدْتُ غرَضَه بسَهْمِه * وقمتُ بهذِه الحَضْرة نائبا ، وفيما نفَذَ إلى الحَضْرة الجليلة مخاطِبا * المقامَ الذي أراه في طاعتِه ورِضاه شريعةً لا أُخِلُّ بأدائها ، وفريضةً لا أَضِلُّ عن قضائها * أبو الفرج عبد السّلام (٢) ذو الهِجْرة القديمة ، والمَحجَّة القويمة * قد [أَلقيْتُ اليه (٣)] مايُؤَدِّيه ، وتبرّكتُ بما يَسفُرُ ويُسافِرُ فيه * وسَمِعَ مِنّي ما ينْهِيه مُجْملا ، الى أن يُكْتَبَ القولُ مفصّلا * فليوقّعِ الأميرُ مولايَ — أدامَ اللهُ تأييدَه — إليّ بأمرِه ونهيه ؛ يُوحِ بامتثالهما الى مطيع سامع * ان شاءَ الله

---

(١) في النسخة الثانية « وجمع القادة » (٢) هو رسول قابوس الى ابن بويه ووزيره الصاحب ابن عباد (٣) في النسخة الاولى « ألفت مايؤديه »

أخرى اليه

وهي عشر قرائن

أيرْضَى الصاحبُ — أطالَ اللهُ بقاءَه — في أمر أَلْقيتُ اليه زِمامَه ، وأوْجَبْتُ عليه ذمامَه * أن يوقِعَه في المَنْساة [1] ، ويترُكَه [متردِّدًا] بين الحَنَك واللَّهاة * وأن يُشْمِتَ به الدهر ، ولا يُصَرِّفَ في إتمامِه الفكر * فقد ازْوَرَّ جانبُ الجواب ، وعُقِمَ ما دار بيننا من الخطاب [2] *

ليس هـذا لشكٍّ في اعتقادِه ، وتبيُّنِ فتـورٍ في اجتهاده * فانه جلا — بما نابَ فيه — ناظِرَ الفضل من الأقْذاء ، وأطالَ بصِدْق السعي [فيه] لسانَ الوَفاء * ولكنَّه تضجُّرُ واثق [به] لوقوع هذا التأخير ، وتَعتُّبُ مُدِلٍّ ولا عَتْبَ في الضمير *

وأبو الفرج عبدُ السلام يوضح من هٰذه المعاني ما تَضَمَّنَه ، ويقوم بتأدية ما [قد] تلقَّنَه * وهو — أدام الله عزَّه — يتفضَّل بالاصغاء اليه ، والايفاء عليه * وإتيانِ

(١) المنساة والمنسأة : التأخير (٢) في النسخة الثانية « في الخطاب »

ما يَردُّ به (١) رداءَ الحمد مَوْفُورا ، ويُلْوِي إليه لواءَ الشكر منشورا * ان شاء الله تعالى

[جواب الصاحب اليه]

قرأْتُ للامير مولاي خطابًا تَحمَّل قَرْعًا وغَمْزا ، وان كان الغرضُ فيه إذكاراً وهَزّا * ولم أكنْ — يعلم اللهُ — مستوْجبًا لمثلِه ، ولا مُتصدِّيًا — بقصُورِ فعلٍ — لسَيْلِهِ (٢) * بل كنتُ فيما ألزَمَنيه مُشَمِّرا ، وبذلْتُ من الجَهْد مُمْكنًا و مُتَعَذِّرا * كلُّ ذلك لأنْ أدَّخِرَ بالاجْتهاد ، ذَخيرةَ الرِّضا والإِحماد * وأقومَ بفَرْضِ طاعتِه ، كِفاءَ غُلوِّي في مُوالاته [ومشايعته] * إلاَّ أنَّ لكلِّ مَرَامٍ وقتًا لا يتأَخَّرُ عنه الدَّرَكُ ولا يتقدَّمُه ، ولا يتقدَّرُ به النجاح ما لم يجرِ به قلمه *

وأبو الفرَج عبد السلام قد تحمّل في هذا المعنى (٣) ما يُغني عن تكلُّف الاطناب ، وتطويلِ شرحِه في

(١) في النسخة الاولى « مايرديه » (٢) في النسخة الاولى « لسبله * لاني لبست فيما ألزمنيه » (٣) في النسخة الاولى « المغنى »

الكتاب * وإذا ذَكَرَ أبوابَه ، وناب في الابانة (١) عنها مَنابَه * وحكَّمَ الاميرُ مولايَ فيه فضلَه ، وأوْلاه (٢) عدلَه * رجوتُ أن أكونَ معذورا ، إن لم أكنْ مشكورا * ان شاء الله تعالى

أخرى [له] اليه

وهي تسع قرائن

قد بلغ مُقامُ فلان أبعدَ الأَمَد ، وتجاوَزَ [تأخُّرُه] حَدَّ العدَد * وارتبكَ من غير سببٍ يُعرَف ، بل صارَ في باب مالا ينْصَرِفُ [فيُصرَف] * والانتظارُ قد غلبَه الوَسْواس ، ووقَعَ عليه النُّعاس * أفيَستحسِنُ الصاحبُ هذا كلَّه ، وأنْ يَرْغبَ عن ذِكرٍ شريف شارفَ نيلَه * أو يرضى أن يَسْعَى في مَكْرُمة ولا يُثْمِرَ سعيُه ، ويَرى انشاءَ مأثُرَةٍ ولا يستَمرَّ رأيُه * فقد لَجَّ ذلك الامرُ في تراخيه ، وتأخَّرَ وقوعُ الفضل فيه * وحامِلُ الرُّقْعة يشرح له هذا المعنى ، ويذكرُ في أثنائه نُكْتَةَ أخرى * وهو

(١) في النسخة الاولى « الانابة » (٢) في النسخة الاولى « وولاه »

— أدام اللهُ عزَّه — يتفضَّلُ بإِرعائهِ سَمْعَه ، واستمْدائه ما معَه * واختصاص هـذا الواحدِ بتعجيلِ الإعادة ، واعفائه مما جرت به [رسوم] العادة *

[جواب الصاحب ايضا]

أوصلَ فلانٌ للاميرِ مولاي كتابا ، مُضَمَّنًا عِتابا * لو لا أن (١) فضلَه كَفَّ عن غرْبه ، لأفْضى من قابي الى لُبِّه * فحسبْتُ مَذاقَه حلواً وإن كان مُرّا ، ومَشْرَبَه صَفواً وإن كان كَدِرا * إذْ صَدَرَ عن صَدْرِ من هو للكرَم مَطْلَع ، وللمَجْدِ مَنْبَع * ومَن إذا عَتَب كان للنباهة مَنْبَهة ، وفي قضايا العَدْلِ حُجَّةً مُتَوَجِّهة * على أنه — أدامَ اللهُ تمكينه — إذا وقف على السَّبَب سَلِمَ من العتبِ خادمه ، ولَبِسَ المَلامَ جارمُه *

فأمّا الرسالة الشريفة في الاعتداد فقد تشرَّفتْ باستماعها ، وأشرَفْتُ من المُنى على يَفاعِها * ولولا أنَّ قولَه متقبّلٌ (٢) بالشكر ، ومعدودٌ في أفضلِ البِرّ * لقلتُ إن

(١) في النسخة الثانية « لو أن » (٢) في النسخة الاولى « مقبل »

الاعتمادَ على سبيلِ الاغراق ، حتى تجاوزَ حدَّ الاستحقاق * إغراءٌ بالتضجيع ، أو تعريضٌ بالتقريع[١] * بلى إنْ تصوَّرَ نيّتي فكانتِ المحمدةُ على قَدْرها ، لم أبْعِدْ أنْ أستوجبَ ما ألبسَني من فضلها *

وقد أعدتُ حاملَ الرُّقْعةِ من فوْره ، امتثالاً لواردِ أمرِه *لازالَ آمراً وناهيا ، وحكمُ مُرْهفَيْهِ ماضيا *

أخرى [له] اليه تعزية

وهي خمس عشرة قرينة

الدهر طعمان : حُلو ومرّ ، وللايام صَرْفان : عُسْرٌ ويُسْر * والخَلقُ معروضٌ على طوريه ، مقسومَ الاحوال على دَوريه * والصاحبُ مِن العلم بتلوُّنه ، ما بين تليُّنه وتخشُّنه * على محلِّ السِّماك ، بل فَلَكِ الافلاك * فمَنْ تخوَّلَه بالتبصير ، وتناولَه بالتصبير * إذا حزَبَتْه حازبة[٢]، ونابَتْه نائبة * كان كمن أمَدَّ النارَ بالشرَر ، وأهدى الضوءَ إلى القمر[٣]* وصبَّ في البحر جرْعة ، وأعارَ سيْرَ الفَلَك سرْعة*

---

(١) في النسخة الثانية « بالتقريظ » (٢) حزبته حازبة : نزلت به شدّة
(٣) في النسخة الثانية « وأهدى الى الشمس ضوء القمر »

لكنَّ التَّسْليةَ رسمٌ مُتَّبَع، وفي تصريفِ القول بها مُنْتَفَع * ولا مَسْلاةَ لرَيْبِ المَنون، وشَوْب هذا الدهر الخؤون * في أبلغَ من يقينِه بأنَّ الموتَ نقلانٌ مَحْتوم، وبه نَفَسُ كلِّ إنسان مَخْتوم * على أنه أصلبُ عوداً من أن تؤثِّرَ فيهِ أنيابُ النوائب، وأثقبُ وُقُودًا من أن يُخْمِدَه انصِبابُ المصائب * وأرزَنُ من أن يماسَكَ بالتعزية، إذا أَلمَّ به ألمُ الرَّزِيّة * فالأَوْلى بمُعَزِّيه أن يميلَ الى التخفيف والتقليل، ويجتنب جانبَ الاكثارِ والتطويل (١) * جعلَ اللهُ هذا الرُّزءَ لمصائبِه مَدَى، ولا أطالَ عليه للنوائب يَدا *

[جواب الصاحب اليه]

وصل للامير مولاي ما نظمه بقامه، وأسْهَمَه لي من نفائس قِسَمه * بألفاظٍ هنّ عَقَدُ السِّحْر، وقلائدُ الدُّرّ * في تعزيةٍ هي التهنئةُ حَقّا، وتسليةٍ هي التكرمةُ صِدْقا * ولستُ أدري لأيِّ الحالَتَيْن أخطُب شاكرا، وأنتدب

---

(١) في النسخة الاولى « ويجتنب من الاكثار »

ناشرا * ألِمَا ظَهَرَ من شَرَفِ أخلاقِه ، ووُفور إشفاقه * أم لتَجَشُّمِ يَدِه في تشريفِ عبدِه فقد أولاني به مَكْرُمةً لا أنفكُّ من التحلّي بفخرِها ، ومِنّة لاأستطيعُ حملَها لِعَظم قَدْرِها * فأمّا ما نحلَنيه باديًا من الأوصاف التي اشتقَّها من فضائله ، وانتزعَها من كَرَم شَمائله * فأيادٍ غُرٌّ تطوّقْتُها ، وعَوَائدُ زُهْرٌ تنطّقْتُها * لا أخلَى اللهُ أهلَ الفضل من فواضلِه ، وإرواءَهم بدَرِّ مَخائلِه *

أخرى [له] اليه تعزية

وهي تسع قرائن

عِلْمُ الصاحبِ بما يَحْدُثُه الدهرُ من حالَتَيْ إرضاءٍ وإشكاء ، وإضحاكٍ وإبكاء [1] * العِلْمُ الذي لا يحِلُّ النقصُ بوادِيه ، ولا يَطُورُ السهوُ بنادِيه [2] * ومن رامَ تعريفَه ما ليس عندَه ، وأراد — مما لم يَسْمَعْه — مَزِيدَه * رامَ ما يُعْوِز ، وأرادَ ما يُعْجِز * نَخَليقٌ به إذا فَجَعَه مفقود ، وفاتَه مَوْدود * أن يتلقّاه بقُوّةِ ايقانه ، ويتوقّاه بجُنّة

(١) في ص ٢٤ (٣) يطور بناديه : يحول حوله

جَنابِه * ويَتَسلّى عمّنْ ساءه به حُلولُ الرّزِيّة ، بسلامته التي هي زِنادُ (١) كلِّ مَزِيّة * جبرَ اللهُ مُصابَه بجزيل الأَجْر ، وجَنَّبَ جنابَهُ غَوائلَ الدّهر * وصَرَف عنه أيديَ صَرْفِه ، وطَرَفَ دُونَه عَوادِيَ طَرْفِه * [بمحمدٍ وآله وعِتْرَتِه]

* * *

وحسبك من شرف هذه الرسالة أن المخاطب بها ترك أسجاعه التي كان يفتخر بها ، واقتصر على الاوزان في الجواب

وهذا جوابه

أيادِي الامير مولايَ — أدامَ اللهُ تأييدَه — وإن طالتْ باعَ الشكر ، وبهرتْ ضِياءَ الصُّبح ، وقيل فيها : هذه أَبْكارُ المجد ، وأعيانُ المكارِمِ الزُّهْر ، فانَّ كتابَه الوارِدَ آنِفاً — يُعَزّيني فيه عن فاجِعَة الرُّزْء ، ويَهْدِيني به لواضِحَة الصّبْر ، ويَزيدُني معَه عِلْماً بأخلاق الدهر — نعمةٌ غَرّاءُ تَتْرُكُ النِّعَمَ ضئيلةَ الشَّخْص ، وتَفُوتُها فَوْتَ السّماء الأَرض (٢)

(١) في النسخة الثانية « زيادة » (٢) في النسخة الاولى « للأرض »

فها أنا مرتهن بها بقيّةَ العمْر ، مُسلِّم لها مقرّ بالعجز ، مُستخِفّ — لجلالها — ما أثقلني من أعباء الحُزْن

فأدامَ اللهُ أيامَ الاميرِ مولايَ مضيئةَ المَطالع بشُموسِ الانس ، غَزيرَةَ الانواءِ (١) بشُمول العِزّ ، محروسةَ المشارِعِ من شَوائب الهَم ، مَصُونَةَ الارْجاء عن طوارق السَّلْب ؛ حتى يتملّى العصرَيْن قَريرَ الطَّرْف ، شَديدَ الأَزْر ، عاقِداً في الرِّقاب أطواقَ المَنّ ، تُستَعادُ بارشادِه شَوارِدُ الحِلْم ، إذا الحادثات تحامات على القلب (٢)

وقد قرأتُ من ذلك الخِطاب الجَزْل شارِحةَ الصَّدْر ، وقلت : لا جزَعَ من الخَطْب بعد هذا المنطِق الفَصْل ، والاكرامِ الواسِع الخَطْو . وأكثرتُ من الحمدِ لله رب العالمين ، والصلاةِ على النبيّ محمدٍ وآله الاكرمين

أخرى [له] اليه

وهي عشر قرائن

قد طالَ — أطالَ اللهُ بقاءَ الصاحب — مُقامُ الفقيه

(١) في النسخة الثانية « غزيرة الانوار » (٢) في النسخة الاولى « اذ الحادث وان تحامل على القلب »

أبي فلان فتجاوز كلَّ طُول ، وأُقفِلَ بابُ رُجوعِهِ فلا يُرجى له [منه] قُفول[١] * بل صار نَسْيًا منْسِيّا ، حتى كاد أن يكونَ عَوْدُه شيئًا فَرِيّا * فكثر منه التعجُّب ، وإن لم يكنْ من نكد الدهر بعجب * إذ كان الدُّعاء الى الأَنْفَة من ذلك الجانِب ، وهذا الفعلُ مع ذلك[٢] القول غيرُ واجب * لاسيَّما والصاحبُ هو المعتمَد ، ومَن به تنحلُّ العُقَد[٣] * ثم لم يكنْ في الموعودِ غَلَطٌ يجبُ تلافيه ، ولا في المطلوب شطَطٌ يقتضي النظرَ فيه *

ما هذا — أيدَ اللهُ الصاحبَ — عتاب ، فليس في صِحَّةِ عَقْدِهِ ارتياب * ولكنه استِعْلامٌ لسبب هذا الالْتِواء ، والانتهاءِ المخالفِ للابتداء * فليتفضَّلْ بإعلامي ما يَجْلُو صَدَأَ التحيُّر ، ويُجَلِّي عن وجه العُذْر في التعذُّر * ويأْمُرُ بفكِّ الفقيه من غَلَقِهِ ، وردِّه برَمَقِهِ * فقد حالَ عليه الحَوْل ، وحَسُنَ في استِزْدادِهِ القَوْل *

---

(١) في ص ١٩ (٢) في النسخة الثانية « من ذلك » (٣) هذه القرينة لاتوجد في النسخة الثانية . وقد بلغ بها عدد قرائن الرسالة احد عشر قرينه

جواب

وَرَدَ للامير مولايَ كتابٌ بخطّه لو خاطبَ به الدهرَ لأعطاه مقادَته ، وخَدَمَ رِضاه وإرادَته * ففرضْتُ على نفسي أن أواصِلَ التشمّر إلى أن أرى النجاحَ فيما رآه مُشْرِقَ الجبين ، وعقدْتُ النَّذْرَ بأنْ أُصابِرَ التنجّزَ (١) حتى أَلْقى المَرَامَ فيما ابتغاه مُشْرِفَ العِرْنين * وقد أذِنَ اللهُ الآنَ في تقريبِ المُرادِ من المُريد ، وجعله أدْنى من حَبْلِ الوَريد * فجازَ لي أنْ أُبَشِّرَ بمقدّمات الإنجاز ، ولكن بعد أنْ تَطَوَّقْتُ من عُهْدَةِ الضَّمان ، ما توقّيتهُ مُدّةَ الزمان * وإذا وافى من يُعْطي الشُّرُوطَ حظوظَها ، ويُوَفي مَعْقُودَها ومحفوظَها * وَصلْتُ الأيمانَ بالهِجْرَة ، وأكملتُ الحَجَّ بالعُمْرَة *

جواب جواب

وهو سبع عشرة قرينة

وصلَ خِطابُ الصاحِب — أدامَ اللهُ عِزّه — محقّقًا

(١) في النسخة الثانية « المتجر »

ما انتظرته من تفضُّلِه ، ومُوثقًا عُرى ثقتي بتكفُّلِه * فاجتليتُ طَلعةَ اليُمْنِ في اثناءِ معانيه ، واجتنيتُ ثمارَ اليُسْرِ مِمّا صَرَّفَ قولَه فيه * وشُكْرُه على هذه الحال حقٌّ واجب ، وغَريمٌ مُطالِب * ولكنْ أنَّى لي بشُكْرِ فِعلٍ أرْغَمَ أنفَ الدهر ، وحَلَّلَ عُقَدَ السِّحْر * بلسانٍ دخيل (١) ، وطبعٍ كَليل * إلاّ أنْ أُعارَ بلاغتَه فأُعبِّرَ بها عمّا في الضمير ، وأسلَمَ معها من سِمَةِ التقصير * وهذا رَجاءٌ ضَيِّقُ المَجال ، وتَمَنٍّ مَنيعُ المنال (٢) * فمِن أينَ للضِّباب ، صَوْبُ السَّحاب * وللغراب ، هُوِيُّ العُقاب * وهَيْهاتَ أن تكتسِبَ الأَرْضُ لطافةَ الهَواء ، ويصيرَ البدرُ كالشَّمسِ في الضِّياء * فأمّا تقلُّدُه العُهْدَة ، التي توَّقاها سالِفَ المُدَّة * وإيماؤه الى رَدِّ مَن يُنْبيءُ عن إحاطتي بما أتاه ، وسُكوني الى مقدِّمة ما وآه (٣) * لِيَصِلَ الايمانَ بالهِجْرة ، ويكمِّلَ الحَجَّ بالعمرة * فزيادةٌ في مِنَنِه ، وحِلْيَةٌ لمحاسنه * وفضلٌ منه مُجَدَّد ، وجَميلٌ لم يَلْبَسْ جمالَه أحد * وهو — أدام اللهُ عزَّه — خَليقٌ بأن يُصدِّقَ فيه أَمَلَه (٤) ،

(١) في النسخة الثانية « طويل » (٢) في النسخة الاولى « المثال »
(٣) ما وآه : ماضمنه (٤) في النسخة الثانية « مثله »

وُيضِيفَ الى نَهَلِ فضلِهِ عَلَلَه * وأن يُلحِقِ الوفاءَ بنِعَمِهِ ، ويُمْضِيَ ضَمانَ لِسانِهِ وقامه * فمِثْلُهُ إذا ضَمِنَ وَفى ، وإذا سَعى لمكرُمَةٍ بلغَ المنتهى *

أخرى [له] اليه

وهي أربع قرائن

قد أودَعتُ — أطال اللّهُ بقاءَ الصاحِبِ — أبا العبّاس رسالة خاصِّيّة ، وسرِيرَةً إخْلاصِيّة * فيما يَجْمَعُ القلوبَ على الصفَاء ، ويؤكِّدُ الثِّقةَ بدوام الوفاء * وهو — أدامَ اللّهُ عزَّه — وليُّ الاصاخةِ لما يُوردُه وينْهيه ، والاناخةِ بعرَصات معانيه * وتَبيُّنِ الصَّلاح في أعطافِه وأثنائه ، وتَدَبُّره بمُصَمَّم رائه *

جوابه

طَلَعَ عليّ من خِطاب الامير مولايَ روضُ الشَّرَف ، قد راضَه سَحابُ الكرَم . وأدّى أبو العبّاسِ ما فَسَحَ لي مجالَ الأَمل ، ونظَمني مع السَّعادَة في قَرَن . وحمّلته في

الجواب ما يَلْحَظُ بعين الرأي إذ كان أصَحَّ نظرا ، وأصدَقَ خبرا . فان أَصبْتُ فلي من الاحماد نصيب ، وإن أخطأتُ فكلُّ مجتهدٍ مُصيب *

أخرى [له] اليه

وهي ثماني قرائن

قد تيسَّرَ ذلك الامرُ ولله الحمد ، واقترنَ الوَفاءُ بما سبقَ به الوَعد * وأُمضِيَ ما أشارَ به الصاحبُ تبرُّكاً برائه ، وتمسُّكاً بايمائه * واللهُ يجعلُ الخيرَةَ فيه ، والصَّلاحَ في قوادِمه وخَوافيه * وليس وراءَه لتأْكيدِ عُرى الثقة حال ، ولا لسُوءِ ظَنّ بعدَه مَسلَكٌ ومَجال * وإنما بقي أن يَذكُرَ شَرْطَه ، ويُشمِّرَ خطَّه * ويهتزَّ لأمر قد استغرقَ في النوم ، واستَغْلقَ في الصَّوم * حتى يَعُودَ الى الصَّلاح انتهاؤه ، كما تَمهَّدَ به أوَّله وابتداؤه * فيكونَ ذلك لمحاسنه شمساً طالعةً بالليل والنهار ، وقمراً بَريئاً من الكسوف والسِّرار *

جوابه

قد وفَّق اللهُ الاميرَ مولايَ فيما قرَّره ورآه ، ثم قدَّمه وأمضاه * لازالتْ عزَماتُه كوَامِلَ في الصَّلاح ، كوافِلَ بالنَّجاح * وأعانَني اللهُ على ما أنْويه من نِيابةٍ تُحقِّقُ الوعدَ والضّمان ، وتُصدِّق الظنَّ والاسان * وقد أعدْتُ — في عاجل الحال — سَعْدًا بجُمْلةٍ من الجواب ؛ إذ رأيتُه حَسَنَ الأداء [(١)] فيما تحَمَّل واردا ، فوثقْتُ منه بحُسْن الايفاء فيما أُودِعَ عائدا * وأنا مُتَشَمِّرٌ لصِدْق المناب ، ومستمطِرٌ بنَوءِ الايجاب * واللهُ وليُّ التيْسِير والتمكين ، وصلَواتُه على النبيّ محمد وآله الطيبين *

جواب جوابه

وهي ست قرائن

قد عادَ سعدٌ بخِطابٍ مجمَلٍ جميل ؛ وجوابٍ على إيماضِ النُّجْح دليل * وأرجو أنْ يعودَ لَمْعُ [(٢)] هذا الضِّياءِ فجرا ، ويصير هلال النَّجاح بدرا * فانَّ ما أصبحَ الصاحبُ لهِجًا

---

(١) في النسخة الثانية « الآداب » (٢) في النسخة الثانية « لمح »

به من بُلوغ أمَدِ الفضل إذ نواه ، وإجراء الحَزْم الى غايته في إتمام ما بناه * يعِدُني أنَّه ينطِقُ بالصِّدق لِسانَ شَرْطه ، ويُخبِرُ بالانجاز ضَمانَ خطِّه * وهذا أمرٌ قد شاعَ في الدنيا أنه قد اهتزَّ لتلافيه ، وارتزَّ لاحراز الفضيلة فيه (١) * فليكن منه ما هو أزيدُ في محاسنِ فعله ، واقعدُ منتسبًا الى فضلِه *

أخرى [له] اليه

وهي تسع قرائن

وجدتُ كلامَ الصاحب كلامَ حائمٍ حولَ الارتياب ، ظانٍّ بما بيننا ما يُظَنُّ بالسَّراب * فساءَ مسموعُه ، وأثَّرَ في القلب وقوعُه * وما كنتُ أُحِبُّ أن يَقلَقَ بالثِّقةِ مَقَرُّها (٢) ، وينقبضَ من الاستنامةِ مستمرُّها * والأُلفةَ قَدَمُها ثابته ، والخُلَّةَ على أزكى الثَّرى نابتَه * فليَنزِلْ عن مَطايا التَّوَزُّع والتَّقَسُّم ، ولا يَقبَلْ على اليقين دعوى التوهُّم * فأما ذلك المُهِمُّ فما أحراه بأن يُأجِمَ فيه مُسْرَجَ وَعْدِه ، ويَنتِجَ

(١) ارتز : ثبت (٢) في النسخة الاولى « أن تقلق الثقة في مقرّها »

بالنُّجْحِ ما ضَمِنَه نِتْجُ يده * فَمَنْ كان الصاحبُ عاقِدَ أمره ، ورائدَ خيره * خَليقٌ بأن يُدْرِكَ الأَمل ، ولو تناوَلَ زحل * وينالَ مناه ، ولو مغالبَة الدهرِ مبتغاه *

جواب

تخيّلَ (١) الاميرُ مولايَ مني ارتياباً بعِصَم عَقده ، وفي التقدير عدْلٌ وظُلْم ، وظنَّ بي امْتِراءً بكرَم عهدِه ، وبعضُ الظنِّ إثم * فلو حالَ القمرُ عن مَسْراه (٢) ، وحارَ الفلَكُ في مَجْراه (٣) * لما جوَّزْتُ على بذله بُخْلا ، ولا تمثَّلتُ على عَقْدِه (٤) حَلاّ * إذ الاميرُ مولايَ أفسَحُ في الحَزْم مَذْهبا ، وأعلى في العَزْم (٥) مَرْقَبا * مِنْ أنْ يُمِرَّ أسبابَ الفَضْل ثم ينقُضَها (٦) ، ويَمُدَّ (٧) أطنابَ البِرِّ ثم يُقَوِّضُها * كلاّ ومَنْ جَعَلَ المحاسِنَ محبوسةً على مَجْدِه ، والمحامِدَ مَنْقُوصةً حتى كلّها بيده * ولكنّي أعْظِمُ ما وَهَبَ اللهُ منه فأبْخَلُ بِرائه على هُجْنة التكدير ، وأغار على وفائه

---

(١) في النسخةالثانية « تحمل » (٢) في النسخة الاولى « على مسراه »
(٣) في النسخة الثانية « عن مجراه » (٤) في النسخة الاولى «من عقده»
(٥) في النسخة الاولى « في العزّ » (٦) يمرّ أسباب الفضل : يفتل حباله ويعقد أوصراه (٧) في النسخة الثانية « ويعدّ »

من جُرْأةِ المَقادير * ووُلُوعُ الشَّفِيق بِسُوءِ الظَّنِّ داءٌ قديم ، ومعاذَ اللهِ بل دَواءٌ كريم * وأمّا المهمُّ الذي أشارَ الاميرُ مولايَ اليه ، واستَخْلَفَ مَنابي عليه * فاني فيه عند حُكْمِهِ ، وعبدُ رَسْمِهِ * ولو قدَرْتُ ثمَّ سَخَّرْتُ النُّجومَ مُهْدِيًا سُعودَها إليه ، ومُغْرِيًا (١) نحوسَها على من يَميل عليه * اظنانتَني قريبَ المَطْلَب ، قصيرَ الباعِ والمَنْكِب * فليُنْعِمْ بمكاتبتي أمْرًا ونَهْيا ، يَحْمَدْني جِدًّا وسَعْيا * ان شاء الله تعالى

قد انقضت الرسائل الكتابية

---

(١) في النسخة الثانية « ومطلعاً »

وهذه تلك الرسائل الأربع

التي ذكرتُها في صَدْرِ هذا الكتاب (١)

وانما أضفتها الى هذه الرسائل ليعلم أن كلامه وعبارته في شرح جميع العلوم ككلامه وعبارته في نمط الكتابة

فانّ هؤلاء الذين ترجموا كتب الفلسفة وغيرها لم يقدروا على العبارة عنها الا بألفاظ عامية ركيكة ، وان كان من تعاطى ذلك مشهوراً في الفصاحة والبلاغة

فهذه في وصف العالم وذكر تكوّنه ، وفي جواز تبدله بالافضل الاكمل ، وفي عجز البشر عن معرفة الباريء جل جلاله

وصدر الرسالة اثنتا عشرة قرينة

هذه مسائلُ غامضةٌ مُنْغَلَقة ، وبَعلائق الممتنِعات متعلِّقة * قد كثرتْ فيها أقاويلُ العلماء ، ولم تخرُجْ بعدُ لأحدٍ من الظُّلماء * ولكنّا نجتهِدُ في إخراجها من الظَّلام ، وتخليصها من شُبْهَةِ الإبهام * بعون الله

غيرَ أنَّ مَن كان بعلم من العلوم مَشغُوفا ، ووَكْدُه الى تعاطيه واستعمالِه مَصْروفا * يكرَهُ سماعَ ما لا يُلائِمُ علمَه ، ولا يُعْجِبُه سوى ما تلقّنَه وتعلَّمه * إلاّ أن

---

(١) هذه الرسائل ليست في النسخة الثانية

يكونَ الرُجل محصِّلاً حَصيفا ، ومميِّزًا منصِفا * ثمّ يكون مع ذلك للحقِّ طالبا ، وعن طريقِ اللّجاج والعِناد ناكِبا * ويكونُ غرَضُه تحصيلَ الحقيقة ، وتسكينَ القلبِ بنَيْلِ الوَثيقَة * لاتصويرَ الظنِّ بصورة اليقين ، متعلِّقًا بأقاويل المتقدِّمين * فمن المُحال دفعُ العِيان بالخَبَر ، وتفضيلُ السَّمع على البَصَر * وهذا مَوصُوف عزيز المرام ، قليلُ الوُجود في الأنام * لـكنْ لابدَّ على كلِّ حال من الكشفِ والدّلالة ، على ماتضمنَه صدرُ الرسالة * فنقول :

إنَّ سببَ كونِ هذا العالَم ليس ما زعمَه الزاعمون أنه جُودٌ من الباري جلَّ جلالُه أظهرَه ليعلم به أنه جَواد ، أو مُرادٌ كان له سِواهُ في إظهاره فقضاه ؛ لأنَّ الاظهارَ قصدٌ ، والقصدَ احتياجٌ ، والاحتياجَ عجزٌ ، والباري مبرَّأٌ من العجز والاحتياج ، ومما يُزَوِّرُه لسان الاحتجاج. ولـكنَّه لما كان حيًّا دائمَ الحياة قادرًا قويًّا وعالمًا حكيماً ذا الجَلالِ والعزَّة والمُلْكِ والعظمة لم يكن لظهور هذه الصفات منه بُدٌّ من غير أن كان له فيه قصد ، فكان

ظهورُها كونَ هذا العالم الدالِّ على صفاته التي ذكرناها كظهورِ الضياء والنور من جوهرٍ مضيءٍ نيِّر من غير قصْدٍ منه لاُظهاره ، وانتشار الحرارة من النار من غير قَصد منه لنشرها ، وكذلك اللَّمْعُ من اللامع ، والفَوْحُ من الفائح

فان قيل : ان ظهورَ الشيء من الشيء من غير مُظْهِرٍ له بقصدٍ لا يكون إلاَّ بالطبع من المطبوع ، والمطبوعُ جسم * فجوابه : ان أعظم الاجسام وأشرفَها هو جسم العالم الأعلى ، وإذا قلنا إنه ظَهَرَ من الباري فقد انتفى عنه — جلَّ جلالَه — معنى الجسمية والطبيعية ، وثبت أنه مُجَسِّمُ الاجسام ومطبِّعُ الطِّباع ومُوجِدُ كل موجود . ولكن اذا أُريدَ وصفُ الشيء الغائب البسيط لتتَصَوَّرَ كيفيتُه لم يمكنْ تمثيلُه إلاّ باقامة مثالٍ له من الجِسم المركَّبِ المُشاهَد

هذا ولم يكنْ عند كونِ العالم وقتٌ وزمان كما ادَّعاه بعض الاوائل ، فالوقت والزمان من حركات الفَلَك ، والصُّنْعُ بالصانع متصلٌ أبداً غيرُ مفارقٍ له ولا مقطوع

عنه ، كقُرصَةِ الشمس وشُعاعِها * لان وقوعَ الفصل بينهما يوجبُ إيضاحَ سببٍ لاظهاره ، وذلك إمّا أن يكونَ للقدْرة بعدَ العجز ، أو للعلم بعدَ الجهل ، أو للاحتياجِ بعدَ الاستغناء . وهو عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن هذه الثلاثة . وإذا كان كذلك لم يكن للجحودِ فيه مجال ، واعتقادُ وجوبِ زمانٍ لفعلِه مُحال

فان قيلَ إذا كانا معًا فكِلاهما قديم ، وهما لا يَتزايلان ولا يَنفصلان * فالجوابُ : كفى بثباتِ الاوّلية للقُرْصَةِ دليلا ، وللسُّلوك الى صِحَّة تقدُّمها سبيلا ، أنّا متى رَفَعْنا القُرصَةَ بالوَهم ارتفعَ الشُّعاع معَها ، وزالَ بزوالِها ، ومتى رفعنا الشُّعاعَ بالوَهم لم تَرْتفِعِ القُرصة بارتفاعِه ، ولم تزُل بزواله . ثم إنَّا نرى بالنهار قرْصَةَ القمر مجرّدة ، وعن ضوئها منفردة . وهذا عِيان لا يدفعُه إنسان ، ولا ينكِرُه إلاّ مسلوبُ الناظر مفقود البصر . وحالُ قرصة الشمس كحال قرصة القمر

هذه أدِلَّة واضحة ، وبصِحَّة هذا القول صائحة . فقد بانَ بما بيّنّاه أن ذلك ثابتٌ على حاله ، وهذا يقوم بقيامه ،

ويزولُ بزواله. وها هنا للكلام كُمٌّ وذَيل، وللجواب جيبٌ ومَيْل. ولكنا نَدَعُ الإكثارَ من الشواهد، ونقتصر منها على هذا الواحد

وأما العالَم الأعلى فهو على أقصى نهاية في استواء التركيب، وانتظام الترتيب. ولكنّ السُّفليَّ وإنْ كان مُتّصِلاً بالعلويّ ففيه ما فيه من التبايُن الذي يعتريه، مثلُ الكَوْنِ والفساد، والتناقُضِ والتَّضادّ، والتغيُّر والاستحالة. ثم أصنافُ الحيَوانات في اختِلاف خِلَقِها وصُوَرها، وتباين أخلاقها وأفعالها، وتسلُّطِ بعضها على بعض. ومن وُجود هذا التفاوُتِ العظيم بين العالَمَيْنِ الأَعلى والأسْفَل، واستنكارِ الناس لهذه المتَضادّات من صنع الباري وتنزيههم إيّاه عنها

اختلفَتْ أقاويلُهم في فاعل الخير وفاعل الشرّ، حتى أدّاهم ذلك إلى ذِكر النُّور والظلمة، ووُجوب الصانعَين وادّعاء الخالقَين خالقِ الخير وخالق الشرّ. وأحوجهُم التَّحَيُّر فيه إلى شكاية الدّهر وذمّه، وإساءة الثّناء عليه وسبّه. إذ ظنُّوا أنّه جالبُ كلِّ شر، وسالِبُ كلِّ خير، فلم يزَلْ

لذلك مذمُوما ، ومهجُوّاً بكلّ لسان وإن كان مظلوما

فان قيل : إنّ كونَ العالَم الأعلى في اعتداله ، وتساوي أحواله ، وعدَم التغيُّر والفسادِ منه ، إنما هو لقُربه مِن الباري جَلَّ ذِكرُه ، وكونُ هذا العالَم الاسفَلِ على خِلافه في الاختِلال والانحلال من جِهة بُعْدِه منه ، ولأنّ الأفعالَ المَوْجودَةَ فيه من الفاعِلات النواقِص ، أعني المكنونات اللاتي ليست لها قُدرة المُبْدِع ، وهي الأركانُ والطَّبائع ، لأنّ كل واحدة منها صارت فاعلةً بعد أن كانت منفَعِلة *

فجوابُه : ان هذه الحُجَّة تَتَّجِهُ على أفعال البشر التي يجوّز عليها العَجز والضَّعْف ، والوصولَ الى بالتداني ، والقصورُ عنه بالتباعد . فأما فعلُ الباري القادِرِ التامِّ القُدرة فالواجبُ أن يكون في القُرب والبعد سواءً في الكمال ، وبريئًا من الوَهن والاختلال . لأنّ سلطانًا لو رأى من رعاياه في مملكةٍ له بعيدةٍ منه تغلُّبَ بعضِهم على بعض ، والضُّعَفاءَ مسخَّرين للأقوياء ، فتركَها على حالها وخَلاها لبُعْدِها عنه ، لم تكنْ رعاياه مرعيَّة ، ولا سياستُه مَرْضِيَّة . ولو أنَّ صائغًا صاغَ آنيةً من الأواني من ذهَب أو فِضَّة ،

ولم تكنْ صِيغتُه على عمل واحد في الدِّقّة والغِلَظ واستِحكام الصَّنْعه واستِواءِ الشَّكل والصورة ، لعِيبَ ذٰلك عليه ، وحُكِمَ بأنه غيرُ حاذِق في صناعته . أو أنّ كاتبًا كتبَ كِتابًا أو شاعراً أنشأ قصيدةً ، ولم يكنْ كلامُهما على نَمَطٍ واحد في الجَوْدة والفصاحة ، كان مطعوناً فيه ، ومنسوبًا الى سُوءِ المعرفة . وهٰذا القرآن العظيم مع فَصاحته وإعجازه ليس يسلَمُ أيضاً على بعض الناس بادّعائهم وقوعَ التَّفاوُتِ بين سُورة وسورة في الفَصاحة والنظم . والْأَوجبُ على الصانع الأعظم الاجلّ ، والخالق الاكبر الأقوى ، أن لا يرضى بهٰذا التفاوت العظيم بين الطرَف الاعلى والطرَف الاسفل من مصنوعه ، وأن يُحيله الى غاية الكمال ؛ لان الصُّنعَ ما لم يكنْ بريئًا من النقص والاخْترام ، لم ينَلْ شرفَ البقاء والدوام . فالدليل الاول على جواز تغيُّر العالم ما ذكرناه

ثم حركةُ هذا الفَلَك الطيّار ، بجناحَيْ الليلِ والنهار ، فانها على حدّ الامكان من الوقوف ، والانتهاء الى السكون . لأن السكون غايةُ المتحرّكات كلِّها ، على ما نشاهِده نحنُ

من الحرَكات الصِّناعية والطِّباعيّة والفِكريّة

وهذه الحركة أيضاً وإن كانت مُدَّتُها ودَوامُ حركاتِها لا تَدفَعُ حُكمَ الوُجوب في سُكونها مرَّةً وإن كانت نِهايتُها غيرَ معلومة ، فان وقعَ اسامعي هذا تعجُّبٌ منه واستِنكارٌ له كان ذلك من جهة ماسمِعُوه وعرفوه من دوام هذه الحركة ، فاستعظَموا تَبدُّلَها بغيرها ، إذ كان مُخالفاً لمعهود المشاهدات . ولا غرْوَ أن يَعْرِضَ هذا الشكّ قبلَ الرَّوِيَّة وإعمال الفكر ، فيُستنكَر تبدُّلُ شيء بشيء ، ولم يُرَ منه قطُّ تغيُّرٌ وحُئول عن جهته ، ولا وقوف وإمساك عن فعله

فان قيل : ليس هذا ممكناً ما دامتْ حركةُ الفَلَك هذه الحركةَ التي لا تستريح من سَفَر الدوام ، ولا تسكُنُ قدْرَ حَسْوة الحَمام . أجيب بأنّا لا نقدِر على علم الاشياء الغائبة إلاّ بما نشاهِدُه من الاشياء الحاضرة . وهذه سُنَّةٌ سنَّها الفلاسفةُ ، وتوصلّوا بها الى دَرَكِ الحقائق ، فاطَّرَدَ القياسُ فيه ، وحصَل العِلْمُ بالغائب من هذا الوجه

ولو لم يكنْ لنا هذا التدرُّب والممارسةُ المشاهدات ،

ثم القياسُ بها على المغيَّبات ، لكنّا نأبى قبولَ قولِ واصِف لحيَوانٍ مّا على صُورَةٍ مُخالِفةٍ لمعهودِنا ومعلومِنا من جملة الحيَوانات التي شاهدناها . ولكنّا نعلم بهذا القياس المعمول عليه انّ كوْنَ ما وَصَفَه جائزٌ وغير مدفوعٍ أن تأتيَ القُدْرةُ من الباري بحيَوان لم نشاهِدْه في صورته الخاصّة به . فجائزٌ على هذا القياس أن تُحْدِثَ قدرةُ الباري جلّ جلاله صُنْعاً آخر زائداً على الصُّنْع الاوّل في الشرَف والكمال ، فلا توجَدُ في شيءٍ من أحواله حالٌ تُنافي الاستِقامةَ وتُبايِنُ الحكمة . فيكونُ العالَمُ حينئذ عالَمَ الخُلود والبقاء ، مُنزَّهاً عن الزّوال والانقضاء

فان قيلَ : لِمَ لمْ تُظْهِرْ قدرةُ الباري عزّ وجلّ في الاوّل هذا الصُنْعَ الذي يَستأنفُه لاكمال جملة العالم ، وإزالة الاختلال عنه * فالجواب : انه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرةُ بعدَ القدرة ، والبِدعة بعدالبدعة ، وكان لكلّ متأخّرٍ منها على متقدّم مزيةُ شرفٍ ، وفضيلةُ كمال « هلاّ فعلَ ذلك في الاوّل؟ » لأن الفعلَ كلّما كان المستأنَفُ منه أشرفَ مما سلَفَ ، والاخيرُ خيراً مماسبقَ ؛

كان أدلَّ على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع

ثم ان الحيَّ الدائمَ الحياة ينبغي أن تكونَ آثارُ الحياة منه ظاهرةً بالافعال المتصلة أبداً . لأنها إن انقطعتْ لم يثبُتْ دليلٌ على البقاء الذي لافناءَ له • والقادرُ لا يلزمُه اسمُ القدرة التامَّة الاّ اذا دامَ منه فعلُ القدرة واتصل • كما أنّ إنسانًا إذا بدَتْ منه فضيلةٌ من الفضائل لم يشتهرْ بتلك الفضيلة الواحدة مالم يتّصلْ بنظائرَ كثيرةٍ لها • وكلُّ فعل من فاعل إذا كان مرّةً واحدة لم يقم دليلا على أنّه قادرٌ على فعل مثله ، وكان ذلك منه فَلْتةَ العاجز لاقدرةَ القادر • وكذلك الباري جلّ جلاله ؛ وإن كان اقدرَ القادرين ، وأعلمَ العالمين ؛ فانه متى أتى بصُنْع واحد دَفعةً واحدة ، ثم أمسكَ عنه ولم يَعْدُ فيه ، أوجدَ السبيلَ إلى أنْ يُدَّعى أنّ ذلك كان منه فَلْتة

فان قيل : إن صُنعَه في إظهار العالَم ليس صُنعًا واحداً ولكنَّه أصنافٌ كثيرة مِن صُنعِه * فجوابُه : ان العالَم وإن كان مشتمِلاً على أجناس كثيرة ، ومتضمِّنًا لأنواع مختلفة ؛ فانه صُنعٌ واحد ، ونظامٌ واحد . ومثالُه مدينة

يأمرُ أميرٌ ببنائها جامعةً لـكلِّ ما يُحتـاجُ إليـه فيها من الدُّور والقُصور والسِّـكَكِ والأسواق والحوانيت والخانات وغيرِها من المصنوعات ، فانَّها صنعٌ واحـد ، ومدينةٌ واحدة ، وان كانت الاشياء المذكورة فيها مجتمعةً والابنيةُ المتغايرةُ في ساحاتها واقعة . وكذلك الانسان وإن اجتمعت فيه أشياءُ مختلفة ، ومَعانٍ متباينـة ؛ فهو شخصٌ واحد ، وصورة واحدة

وأمّا الوصول الى معرفة الباري جلَّ جلاله فطريقٌ لاسبيلَ الى سلُوكه ، ومطلوبٌ لامطمعَ في إدراكه . لأن هذا العالَمَ السُّفليَّ هو عالَمُ الكوْن والفساد ، والتغيُّرِ والاستحالة ؛ ونحن وسائرُ الحيَوان مركَّبُون منه . فعلمُنا المختصُّ بنا هو المكتسَبُ بالحواسّ . ثم مايحصُلُ منه من طريق التجرِبة والقياس . والخوضُ في شرح أحواله ؛ مما يقَعُ الاستغناءُ عنه لظُهور كيفيَّاتها في وُجوه تصاريفها من أقاويل الفلاسفة وأصحاب الطبائع

والعالَمُ العُلويُّ مضادٌّ للسُّفليّ في كلِّ أحواله ، وجميع جِهاته ؛ فلا وُصولَ لنا الى معرِفة حقائق أحواله . إذ لسنا

نحن من جوهره ، ولا أجسامُنا مركَّبةٌ من شيء يُجانسُ ذلك الجوهر

ولهذا تعلَّقتِ الفَلاسفةُ بذِكْرِ العقل والنفس ، ليصوِّروا في نفوس الناس أن فيهم جزْءاً من ذلك الجوهر يُدرِكون به الغوامِضَ من العلوم ، إذ علموا أنّ قولَهم في وجود السبيل الى معرفة الباري جلَّ ذكرُه لا يُقبَلُ مالمْ يسنِدوه الى قوَّة في الناسِ من الجوْهر الأعلى

ثم تفرَّعَ كلامُهم ، وقال كلُّ صِنف منهم — على رأيهم واختيارِهم — قولاً ، وخالف بعضُهم بعضاً حتى كثُرتْ أقاويلُهم ، ووَصفَ كلُّ واحد منهم العقلَ والنفْسَ باوصاف ليستْ لها حقيقة ، لتصِحّ بذلك أصولُ دَعاويه ، ويحصُلَ له عزُّ الرِّياسة المرغوبُ فيه

والكلامُ في هذا يطولُ ويكثُر ، والطويلُ يُمِلُّ ويُضْجِر

أخرى له

في ذكر النفس الناطقة
وانها موجودة في سائر الحيوان
لا في الانسان وحده

إعلم أن الذين ينتحلون علمَ الإلاهيّات، ويدَّعون تحقيقَ المعقولات؛ قد أجمعوا على أن أشرفَ الحيَوان ما أثَّرت فيه النفسُ الناطقة، وهو الانسان. فانَّ ما سِواه — على كثرة أصنافه من الحيَوان — في حد النقصان، وبتُّوا الحكمَ به

ونحن نقول: ان كان معنى الناطقة عندهم هو النطق الموجود في الانسان وتفرُّده به فمقبولٌ لا مَرَدَّ له. وإن كان الغرضُ فيه قوّةَ الفكر والتمييز فانه من جوالب الاوهام، لا من نتائج الافهام. لأَنّ هذه القوة في جميع الحيَوان كامنة، وما من أجناسه جنسٌ إلاّ وقد أعطيَ منها قدرَ ما كفاه في طلب المعاش، والتَّهدِّي لوجوه الانتعاش. والاحترازِ من المضارّ والآفات، وإعداد ما يحتاج اليه لكل الاوقات

على أن أشرف الحيوان ما كان أقلَّ احتياجًا الى الاشياء المختلفة ، واكثر استغناءً عنها . ثم ما كانت معرفتُه — من ابتداء كوْنه إلى انتهاء سِنّه — معرفةً غريزية ؛ ولم يكن مفتقراً إلى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ؛ ولا محتاجًا الى الفكر في العواقب والمعاد ، وانتظار المراد من ظلمة السواد ، والتحيُّر في عجائب الليالي والايام ، وفي تردُّد هذا الضياء والظَّلام . ثم ما كان مكتفيًا بحوْله وقوَّته في دفع المضارّ عن نفسه وحَريمه ، ومستغنيًا في تحصيل مطالبه ومآربه عن مُشارك ومعين . ثم ما كان أصدقَ وفاءً وخُلَّةً لما عرَفه وشاهَدَه ، وألِفَه واعتاده . ثم ما كان أنظفَ بَدَنًا جِبِلَّةً وخِلْقةً لا تمَسُّه فاقةٌ للتنظُّف إلى الاغتسال بالماء ، والتمسُّح بشيء من الأشياء ، ولا إلى التزيُّن بزينةٍ مُتخَذَةٍ من خارج . فحُسنُ شعره في مختلف ألوانه ، وأنوارُ ريشِه في صنوف أصباغه ، يُغنيه عن حُسنٍ مكتسَب ، وجمال مجتلَب . ثم ما كان من ابتداء مَولِدِه الى منتهى أمَده في نوعيتّه على طبع واحد ثابتاً في سيرته ، ومصِرًّا على سجيَّتِه . لا يَتبَدَّلُ حالاً بحال ، ولا

يتغيّرُ بين غُدُوّ وآصال . وكلُّ هـذا الذي ذكرتهُ من الاوصاف الجميلة ، والخِصال المرضية ، في سائر الحيَوان موجود ، وفي الانسان ـ بحمدالله ـ مفقود . وماذا يضرُّهم ان فاتهم علمُ الفلسفة والهندسة ، ومعرفة أفلاطون وأرسطاطاليس ، وفيثاغورَس وانبذَقْليس ، وأرشميدس وبطلَميوس ، وهرمس وواليس ، فلا العالِمُ به يَنالُ من العُمر مَزيداً ، ولا الشقيُّ يصيرُ به سعيداً . وكفى شرفاً وفضلا بالبهائم ، أن بَعرَ الظِباء طِبٌّ لهذا الحكيم العالِم . وما يتولّدُ في أحشاء بعضها من الحجَر ، دَواءٌ وشفاء لأدْواءِ البشر

هـذه جُمَلٌ لهـا تفصيل ، وتنزيلٌ يتبعهُ تأويل .
ولكن الجاهلَ ظلوم ، والانصافَ في الناس معدوم

اخرى له

في بُطلان أحكام النجوم

وذكر السبب الذي دعا الاوائل الى وضع هذه الوساوس
والترهات البسابس

اعلم أن أضعَفَ هذه العُلوم ، هو الموسومُ بأحكام النجوم * اذ هو علمٌ معلولُ الأصل ، مختلِفُ الاقاويل ، مدخول الفرع ، مُزَخرفٌ بالاباطيل * ولولم يكن الاصلُ واهيا ، لما سمّتهُ الفلاسفةُ زجراً فلكيّاً * ثم ان الكواكب هي أجرامٌ شريفةٌ علوية ، نيرةٌ مُضيّةٌ * دائمةُ الحركة والسير ، لاظهار المنافع والخير * على الجهات التي قَدَّرَها الباريُ سبحانه فيها ، والهيئات التي ركَّبَها عليها *

ففعلُها المختصُّ بها هو الحركة والاضاءة والتأثيرُ في الاركان ، ومنها في الاشخاص والابدان . كالحرارة والبُرودة والرطوبة واليبوسة التي تحدُثُ منها الصِّحةُ والسّقم على حسب تغيّر الاهوية في البلدان ، واختلاف أمزجةِ الاشخاص في كل مكان . فانّ مَنْ كان مِزاجُه أشدَّ تهيُّئاً لقَبول ذلك الفساد كان أثرُ الفساد فيه أكثر ، ومن كان

مِزاجُه بخِلافه كان أقلَّ قبُولاً له

وأمّا الاحكام في النفوس ، وعلى الاحوالِ الدائرةِ على الناس ، في التردُّد بين الرَّخاء والباس ، والرَّجاء والياس ، والافعالُ الحادِثَةُ منهم ، والأعراضُ الواردة عليهم : كالسعادة والنحوسة ، والمَساءة والمسرَّة ، والخيرِ والشرّ ، والغِنى والفقر ؛ فهي بعيدة منها . لان الكواكب لايلزَمُها في ذَواتها معنى السعادة والنحوسة وغير ذلك بوجهٍ من الوجوه

وأما مايزعُمُه أهلُ هذه الدعوى أن الكواكب هي التي تأتي بالخير والشرّ ، لجميع الخلائق والبشر ؛ وأن مايُصيبُ الانسانَ من الشدَّة والرخاء ، لاختلاف حركاتها وسيرِها في السماء ؛ فَدَفْعٌ للعِيان ، ورفعٌ للبُرهان . لأن سببَ وصولِ الخير والشرّ الى الناس ظاهر : وذلك أنَّا نرى الاساءةَ والاحسان ، عِياناً من فعل الانسان . وكلّ ما يعرِضُ في الدنيا من النِّعمة والبَلْوى فقصدٌ أو اتِّفاق ، وكلاهما له سبب ؛ إلاَّ أنَّ هذا حادثٌ من غير احتِساب ، وذلك كائن بسعي واكتساب

وإذا كانَ الفعلُ واضحَ النسبِ ، ظاهرَ السَّببِ ، فمُحالٌ أن يُنسبَ ذلك الى الكواكب ؛ ويُدَّعى أن سَبَبَه حُلولُ كوكبٍ بُرْجًا من البُروج . ولو كان كذلك لَوجَبَ أن يَفعلَ كلَّ مرّة دَخَلَه فِعلَه الاوّل . وهذا الكوكبُ بعينه يعودُ الى ذلك البُرج مِرَاراً فلا يأتي بشيء منه

والفاعلُ إذا كان فِعلُه صحيحاً ثابتاً كان أبداً ؛ سواء كحركة الافلاك فانها لا تتغيّرُ عن جهتها ، والنار فان فعلَها الحرارةُ أبداً ، وإنما تختلفُ حرارتُها في الكثرة والقلة والقوة والضّعْف على قَدْر القُرب والبعد من المؤثِّر فيه

ولا خلافَ أن كوكبًا آخر حالٌّ في ذلك الوقت برجًا آخر . فان ادّعى الخصم أن ذلك الفعلَ من حُلول هذا الكوكب هذا البُرجَ دون ذلك لم يُمْكنهم إقامة دليل بانه فعلُ الكوكب المذكور أوّلاً

ولو قال [قائل] : لِمَ زعمتم أنَّ زُحلَ نحسٌ ، وما الذي ألْزَمَ أن تخُصُّوه بالنحوسة وهو أعلى مكانًا من

المشتري ، وما كان محلُّه أعلى فهو من جِوار الباري أقرب والسعادة لما كان كذلك أوجب ؛ لم يكن لهم جواب ولا حُجَّة سِوى قولهم إنَّ المتقدِّمين من عُلمائهم كذا قالوا ، وليس هذا حجةً ولا بُرهانا

وكفى لهذا العلم شيناً وشَناراً ، وبأهله سُبّةً وعارا ، أن تكون الحُجّة مُسْنَدَةً الى أقوام صاروا فُتاتًا في التراب ، ومضروبا عليهم سَدُّ الأَياب

هذا وفي أصل دعاويهم ما ينقُض عليهم أقايلَهم ، ويدُلُّ على بُطلان علمهم ، وهي الاختيارات التي يدّعون أنها ثمرةُ تلك العلوم ، وفائدة أحكام النجوم . ويشيرون باستعمالها لابتداء الاعمال ، والتعويل عليها في كلّ الاحوال ، ليأمنوا به ما يحذَرونه من المكارِه والآفات ، ومن صدمة النوائب والنكبات

ثم يقولون : إنَّ المَدارَ على المَواليد ، وما يُحكَمُ به للشقيّ والسعيد . وأنَّهم بها يعرِفون مبالغَ الاعمار ، وما يصيبَ كل إنسان من حوادث الليل والنهار . واذا كان المبدأُ والاصلُ هو الميلاد ، وعليه المدارُ والاعتماد ،

ووجب به للمحكوم له أن تُصيبَه سعادة أو تلحقه نحوسة ، كيف يمكنُ للاختيار دفعُ ما حكَمَتْ به الاصول ، وشَهِدَ به عندهم شهودٌ عُدول ؟ إذ لا شك في أن ماينسُبونَه الى الكواكب من الافعال صُنعٌ من الباري سبحانه ، فقَدّرَهُ فيها لِيَظْهَرَ منها ذلك الصُّنعْ : كالقضاءِ والقَدَر ، الجاريين على البَشَر . وما قَدّرَه الله وقضاه ، فلا مَرَدّ له عن مجراه

فأمَّا ما يَتَّفِقُ لهم من الاصابات، في بعض الاوقات، فلا يوجبُ ذلك إبطال ما بَيّنَّاه من بُطلان علمهم . إذليس إصابتُهم في ذلك الحكم، دليلا على صِحَّة هـذا العلم . لانَّ الاصابة تَتَّفِقُ كثيراً في أقاويل الـكَهَنة ، والناظرين في الأكتاف ، والمخبرين عن الخفيات بالأجر والاقتياف .

وهم لا يرجعُون الى أصل صحيح فيما يقولونه ، ولا الى دليلٍ ثابت فيما يدّعونه

ولـكنّ هذه صناعة أحدَثَها ـ على ما يُقَال ـ العلماء الذين شَرعوا في عـلم الهيئة ، وأدركوا منهـا ما أدركوه بتعب شديد ، ودهر مديد ، خوفاً من دُروس أثره ، وخُمود ذكره . إذ كان هذا العلمُ عِلماً جليلا ، قد تحمّلوا لتحصيله

عَناءً طويلا . ولم يثِقوا برَغبة الناس بَعْدَهم في ضبطه واستعماله ، لصُعوبة مَسْلكه ، ووُعورة دركه . وعلموا أنهم إن لم يَستظهروا له بادِّعاء عِلمٍ آخر يُرغِّبهم في تعلُّمه ودرايته ، ويحرِّضُهم على تعاطيه ، واجْتِناء ثمرة ما فيه ؛ ضاع عَناؤهم ، وبَطَلَ سعيُهم وصُنْعهم . إذ لم يكن في هذا العلم معنًى يعودُ عليهم بطائل ، ونفع عاجل

فاخترعوا علماً يُشبِه الحقَّ باطله ، ولا يكون سوى الغُرور حاصله . وأطمعوهم في التوصُّل به الى معرفة أسباب السعادة والنُّحوسة ، وجَوالب النفع والضَّرّ ، والغِنى والفقر . ليجتلبوا الخيرَ ويجتنبوا الشر . ويكونوا مِن الخير على أمل ، ومن الشرّ على وَجَل (١) . فقالوا إن في الفَلَك كواكبَ سيارةً من تأثيرها يصيب الناسَ السعادةُ والشقاوة ، والنِّعمةُ والمحنة ، والعِزَّةُ والذِّلَّة ، والصِّحة والعلَّة . وقسَموا البُروجَ على تلك الكواكب ، وسموها أسماء مختلفة : كالأسد والعقرب والقوس والحُوت والحَمَل والميزان وغيرها ؛ ولا قوسَ في السماء ولا عقرب ، ولا

(١) في ص ٢٤

ذئبَ هناك ولا ثعلب . ولا حُوت ولا حَمَل، ولا جراد ولا جَمَل . ووَسَمُوها بسِماتٍ مختلفة كالشَّرَف والهُبوط ، والبيت والوَبال ، والبئر والحِصار وغير ذلك ، ولا شرفَ ولا هُبوطَ هناك ، ولا نحسَ ولا سعدَ كذاك . ولا دارٌ هناك ولا جدار ، ولا ثَوْرٌ في السماء ولا حِمار . ثم خصُّوا بعض الكواكب بالسعادة ، وبعضها بالنحوسة . وذكروا أن المخصوص منها بالسعادة اذا دخل بُرجَ كذا أتى بالسعادة ، وأن الموسوم بالنحوسة إذا دخل برجَ كذا أتى بالمنحسة . لتُحْوِجَهم معرفةُ الاوقات الى تعلُّم الحساب واستعماله ، وحفظِ سَيْر الكواكب بالأرصاد ، واتخاذِ التقاويم لمعرفة الميلاد . فيحصُلَ لهم نيلُ الأرَب ، ويحيى ذلك العلم بهذا السبب . ويكونوا قد أدركوا المُنى ، مع بقاء الذكر في الدنيا

أخرى له

في ذِكرِ النبيِّ عليه السلام وصحابتهِ رضي الله عنهم

وهي احدى واربعون قرينة

اعلمْ أنَّ من أصعب الامور، وأشرفها بين الجُمهور* هو الخُروج بالنبوّة، والاستعلاء على الخَلْق بهذه القوّة* لأنَّه تقليبُ الوجُوه عن القِبَل المعبودة، وإدخال الاعناق في قِلادةٍ غيرِ معهودة* ومخاطبةُ الخَلْق عن الخالق، خالقٍ لا تُدْركُه أبصارُ الخلائق*

وقد اعتلى نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ذِرْوَةَ هذا الشرف، وصار لمن سلفَ من الانبياء خيرَ الخَلَف* وفاز بمزيَّة هذا الذِّكْرِ العظيم، وأذاقَ العربَ لذَّةَ النعيم* ونقلهم الى الثروة والغِنَى من الفَقْر والفاقة، وأراحَهم من رعاية الجَمَل والناقة* وليس وراءه لابتغاء العُلَى أمَد، فما فوقَ السَّماء للسموّ مَصْعَد*

ثم ضَبْطُ الامر بعد زَعيمه على نِظامه، وإقامتُه في قِوامه* وهذا ما تولّاه أبو بكر حين ودَّعَ النبيُّ عُمْرَه، من غير أن سَلَّمَ إلى أحد أمرَه* فانه قامَ به قِيامَ ثابتٍ

القلب ، مستقِلٍّ بمقاومة الخَطْب * غير مفكّرٍ في رَدِّ رادّ ، ولا مُبالٍ بمُعاداة مُعاند * حتى حمى حَريمَ الدِّين ، وجمعَ شمل المسلمين * ولم يرضَ أن يلمَّ ببَيْضة الشريعة ثَلْم ، ولا أن يتغيَّرَ من أحكامها حُكْم * فلُقِّبَ خليفةَ رسول الله ، بانتدابه لِحياطة دِين الله * ثم تحصينُ حَوْزَةِ الاسلام من عَوارض الفساد ، وعادِيَة الاعداء والأضْداد * والمجاهدةُ في استِضافة ديار المخالفين ، الى جانب الاسلام ومجامع المسلمين *

وهذا ما أتاه عُمَر ، لمَّا آل اليه الأمر * فانه صَرَفَ جُهْدَه الى الجهاد ، وقَصَرَ وَكْدَه على افتتاح البلاد * حتى اتّسع نطاقُ هذه المِلّة ، وخضعت الرِّقاب لأهل هذه القِبلة * فلُقِّبَ أميرَ المؤمنين ، إذ كان نِعمَ العونُ لرسول رب العالمين

قد فرغَ النبيُّ عليه السلام من الامر الأعظم ، والشأن الافخم * وأطفأ لهيبَ كلِّ مُلْتَهِب ، على رَغمٍ من أبي لَهَب * والْتَأَمَ بسعي الشيخَيْن ، شَعْبُ الامرين الآخرين * وبلغَ من الاحكام مَبْلَغًا ليس فيه مُسْتزاد ، ولا يَشِينُ

بياضَ غُرَّته سَواد * ولم يبقَ للتابعين سوى التمسُّك بدين ممهّد، ومُراعاة بناءٍ مُشيَّد * فلم يقدِروا على القيام به، واحتجبوا وراءَ حِجابه *

ولما أتت الخِلافةُ عُثمانَ بنَ عَفّان، كان منه ما كان * من تبديل زيِّ النُّسْك، بزينة المُلْك * وتغيير سيرةِ الائمة، حين توسَّعَ في النِّعْمة * حتى اجتنى ثمرةَ ما جنى، وتيَّهَ به سُوءُ ما أتى *

ولما عادتْ الى عليّ بن أبي طالب، طلعتِ الرماحُ من كل جانب * وَبَدتِ الأَوابِد، وتبدَّلَتِ العقائد * وتحوّلَ أمرُ الدِّين مُلْكَ المُغالبة، وَدِوَلَ القِتال والمُجاذبة * ووقعتِ الخِلافةُ في الخلاف، وبرَزَ الشرُّ مِن الغِلاف * وبقيَ عليٌّ على اضطراب لا يَهْدَأ، وفي مداواة داءٍ لا يبرأ * مع شجاعته المشهورة، ومآثِرِه المأثورة * وانتهى آخِرُه الى ما انتهى، حتى جرَى عليه وعلى عقبه ماجرى *

فليُنْظَرْ إذ كان الامرُ كذلك، أهؤلاء أحقُّ بالقِدْح أم أولئك * قد مضى القومُ وآثارُهم في الاسلام كالشمس

في الاشتهار ، والهباء في الانتشار * وصنعهم صائح بحي على الفلاح ، وليس بأيدي الخصماء سوى السفاهة والصياح *

أخرى له

يذكر ما في التكنية ، من النقص والرزية

وهي خمس عشرة قرينة

التكني عند جميع الناس جلالة ورفع ، وإذا نقرت(١) عن حقيقته مهانة ووضع *

فأول ما فيه أن الانتساب إلى الابناء ، منقصة وأي منقصة للآباء * وإن كان الابن قد جاوز المجرة بجلالة الخطر ، واستعلى بسمو القدر على الشمس والقمر * لأنه تقديم الأخير على الأول ، وتفضيل المفعول على الفاعل * وهذا حكم منكوس ، وترتيب معكوس * فنسب الآباء الى الأولاد ، كنسب النار إلى الرماد *

والثاني أنه إن لم يكن للرجل ولد بذلك الاسم أو كان الرجل عقيما ، أليس يكون في دعواه كاذبا زنيما(٢) *

(١) التنقير : البحث

(٢) الزنيم : الدعي اللاحق بقوم ليس منهم

والكَذِب من أقبَح الخَلائق ، باجماع جميع الخَلائق *

والثالث أنَّ التكنيةَ رَسْمٌ حَدَثَ في أيّام مُلوك العَجَم ، ورَقَمٌ مُنْتَسَخٌ من ذلك الرَّقم * إذ كانت عندَهم رهائنُ العرب ، وآباؤهم يغْشَون أولادَهم لهذا السبب * فكان يقال قد جاء أبو فُلان وأبو فلان ، اي إن هذا والِدُ فَلان وذاك والدُ فلان * ليُعرَف وَلَدُ كلّ رجل بأبيه ، فلا يَعترِضُ الاشتباه فيه * فلما دارت الايامُ على ذلك ، صارت هذه النِّسبة رُتبةً لاولئك *

والتكنّي تَرتُّبٌ برُتبة أهل الذِّمَّة ، واستعمالٌ لرُسوم تلك الأُمة * وقبيحٌ سَمِجٌ بالمسلمين ، أن يكونوا بسِماتهم متَّسمين *

فهرس




مكتبة لسان العرب
https://hmmt55.com/lisaan03